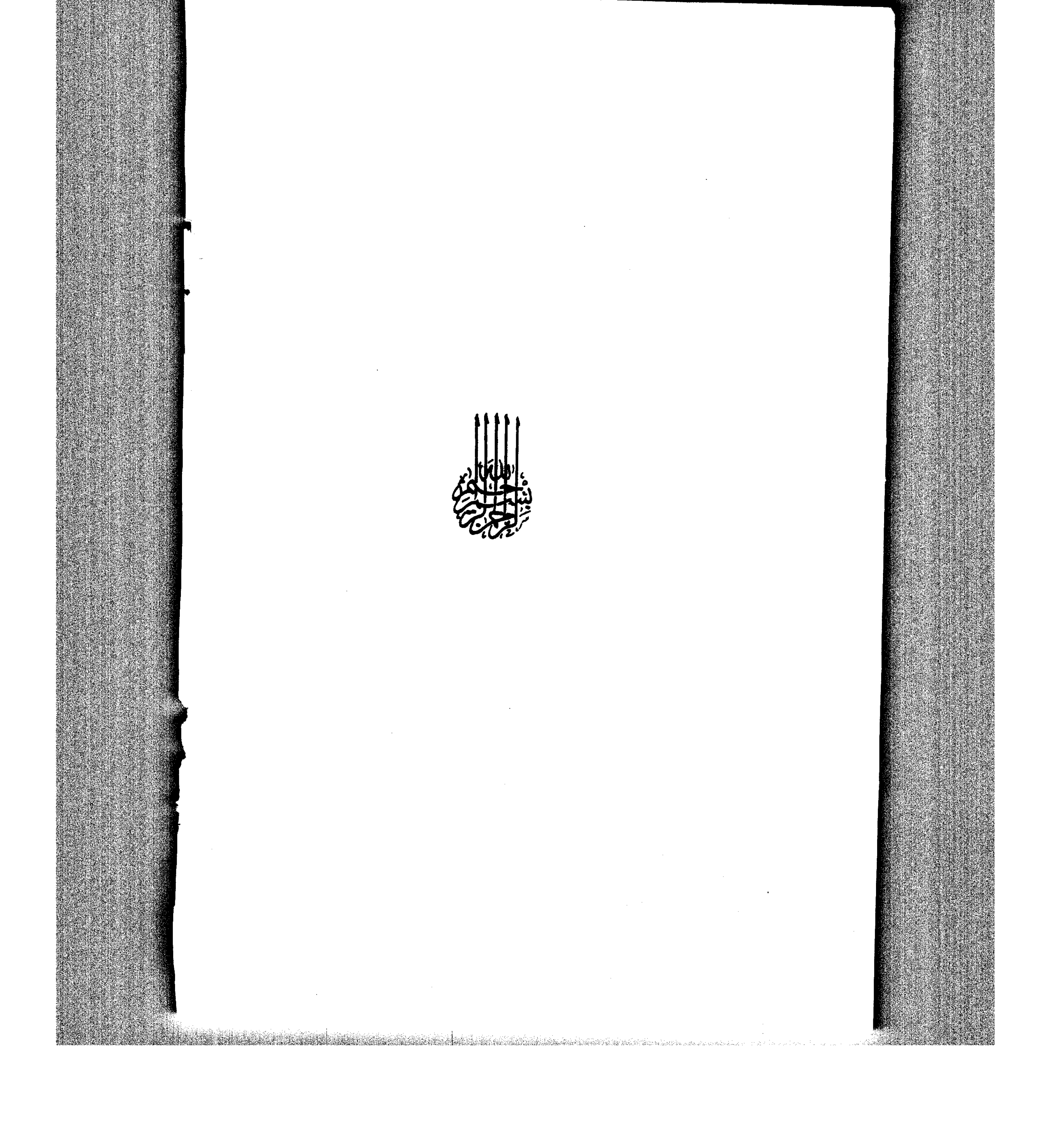
هداية القرآن فى الآفاق والأنفس
وإعجازه العلمى
دعوة ضرورية ومنهج واجب



هداية القرآن فى الآفاق والأنفس
وإعجازه العلمى
دعوة ضرورية ومنهج واجب

(الكتاب الأول)

الدكتور
محمد إبراهيم شريف
قسم الشريعة
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لله سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

(النمل : ٩٣)

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ؟

(فصلت : ٥٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد عام

بين يدى الدراسة

أولا : حقائق ومسلمات :

يلحظ المتتبع لتاريخ البشرية الدينى والفكرى أن القرآن الكريم قد حظى بالنصيب الأوفر من اهتمام البشرية وعنايتها ، وأنه لم يحظ كتاب غيره من اهتمام البشرية بمثل ما حظى به .

كما يلحظ الدارس الفاحص فى الوقت نفسه أنه لم يقدم كتاب من الهدى والخير للناس مثل ما قدم القرآن الكريم ، وكيف لا ؟! والقرآن الكريم كتاب الإنسانية ومعجزة دينها الخاتم الخالد ، وبهذه الحقيقة الثابتة والمتجددة آمن المسلمون وقامت جهودهم الثقافية وأنشطتهم العلمية والفكرية فى شرح القرآن الكريم وتفسيره طلبا منهم لحقيقة أسراره ومراميه واستكشافا لوجوه الهداية فيه .

« وما نظن أحدا يخالجه شك أن المسلمين اليوم – وبعد اليوم – فى أشد الحاجة إلى استلهام القرآن العظيم ، واستنهاض عزائمهم وشحذ عقولهم نحو فهم القرآن الكريم فهما يغير من حياة المسلمين ويضعها فى موضع يمكن لهم من نشر راية الإسلام فى ربوع المعمورة باعتباره دينا مرضيا ومنهج حياة كامل يحمل للناس كل ما تتطلبه حياتهم الحرة الكريمة ، وما تسعى إليه الإنسانية من سعادة وتقدم ورقىّ ، فهمًا يقيم دعائم الحجة على ما جاء به هذا الكتاب من

أصول الإيمان والتعبد ، والتربية والأخلاق ، والنظم الاجتماعية والاقتصادية ، والطرائق الحكمية والتحرر الفكرى ، كما يدل على واقعية القرآن الكريم فى الاستجابة إلى دعاوى الخير ودوافع الإصلاح التى تتطلبها حياة المؤمنين به ، وتتجاوب به مع الحياة الناهضة التى أصبح سلطان العلم والمعرفة فيها فوق كل سلطان »[1] .

إن الإنسانية – فى النظر الصائب – لم تصر بعد إلى الحد الفاصل الذى يفرض عليها أن ترتد كافرة بالعلم أو الدين ، فلا محل للخلاف بينهما أبدا ، كما لا محل للحديث فى هذا الخلاف الذى ينبغى أن يَمَّحِى مما يتكلم عنه الناس فى هذا العصر ، فما من صدام حقيقى يمكن أن يقوم بين جوهر الدين فى دعوته إلى الحق والخير وجوهر العلم فى سعيه الدائب لإسعاد البشرية ، وقد قال الدين كلمته فى ختام رسالاته فبرر بالعلم سجود الملائكة لآدم عليه السلام[2] ، وجعل العلم قرين الإيمان[3] ، وقصر خشية الله على العلماء[4] بما يتدبرون من عجيب آيات الحياة وسنن الكون ، حيث يؤمنون بأن شيئا من ذلك لا يمكن أن يكون عبثا باطلا أو تلقائية عشواء[5]

لقد أصبحت بدعة الصراع بين الدين والعلم – تلك التى رمانا بها الشياطين المضللون للأمة عن منهج الله – مسألة تاريخية ، وأصبح من السذاجة

---

(١) راجع : نحو منهج لتفسير القرآن – محمد الصادق عرجون ص ٨ – ١٠ منشورات العصر الحديث ١٩٧٢م .

(٢) الإشارة هنا إلى الآيات الأربعة من سورة البقرة وأرقامها من ٣١ – ٣٤ .

(٣) والإشارة هنا إلى آية سورة آل عمران رقم ١٨ وهى قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قائِماً بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

(٤) أما الإشارة هنا فإلى آيتى سورة فاطر ٢٧ – ٢٨ وهما قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ . وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ .

(٥) راجع : مقال فى الإنسان – بنت الشاطىء ص ١٦٩ – ١٧٠ طبع دار المعارف ١٩٦٩ م .

والتخلف أن يظل البعض معتنقا لفكرة التناقض بينهما ، وبخاصة بعد أن سقطت الحواجز بين المادة والطاقة ، وأفلست العلوم التجريبية من تفسير طرف الوجود ، ومعرفة أصول الأشياء وغاياتها ، تاركة كل ذلك إلى ساحة الغيب التي يستوى فى الوقوف دونها العلماء والجهلاء ، ومفسحة بنفسها المجال لبقاء الدين وخلوده[1] .

ونظرة واحدة إلى القرآن الكريم تؤكد لنا أن الله جل وعلا كما أنزل للناس كتابا مقروءا ناطقا ، فقد خلق لنا الكون كتابا صامتا يعبر بلسان الحال عما جاء فى الكتاب الكريم بألطف الإشارات ، والحقائق التى يكشف عنها العلم إن هى إلا نوع من كلمات الله الواقعة ، كما أن آيات القرآن الكريم هى كلمات الله الصادقة المنزلة ، ولقد سمى القرآن الكريم فعلا حقائق أسرار الخلق كلمات[2] ، والقرآن الكريم والكون - وهما مصدرا الحقائق الدينية والعلمية - كلاهما من عند الله أنزل القرآن الكريم بالحق كما خلق الكون بالحق ، فلا ينبغى للإنسان طلب الحق إلا فيهما[3] ، ومن ثم لا يتصور تصادم الحق مع نفسه ، فإذا بدا أن هناك تصادما فليس بين دين وعلم ، وإنما بين دين وجهل أخذ سمة العلم ، أو بين علم ولغو لبس سمت الدين ؛ لأنه إذا كان الدين حقا والعلم حقا وجب أن يتصادقا ويتناصرا ، أما إذا تكاذبا وتخاذلا فإن أحدهما يكون - لا محالة - باطلا[4] .

---

(١) راجع : الدين - محمد عبد الله دراز ص ٨٥ ، ١٠٠ طبع العالمية ١٩٥٢م .

(٢) الإشارة إلى كل من : آية سورة الكهف ١٠٩ وهى قوله تعالى : ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ ، وآية سورة لقمان ٢٧ وهى قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

(٣) راجع : الإسلام فى عصر العلم - محمد الغمراوى ص ٤٨ ، ١٧٢ طبع السعادة ١٩٧٣ م .

(٤) نظرات فى القرآن الكريم - محمد الغزالى ص ١٣ ، ١٣٢ طبع الخانجى دون تاريخ .

ومن الملاحظ أن درس القرآن الكريم على هذا النحو من توافق الحقائق العلمية مع ما أنبأ به أو أشار إليه سواء كان غرض ذلك الدرس الكشف عن وجه الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم أو كشف وجوه الهداية القرآنية فى آفاق النفس والكون بعامة – قد فرض نفسه على ساحة الفكر الإسلامى ، واحتل مساحة هائلة من هذه الساحة ، متجاوزا بذلك جميع العوائق وحملات الشجب والاعتراض التى تعرض لها ، واستهوى فوق ذلك كثيرا من الكتاب غير المتمكنين الذين أساءوا إليه ، وضاعفوا بذلك من تيار معارضته ، وأضحى ذلك الاتجاه على أيديهم عرضة بكامله للطعن والشك ، وأصبح المسلم المثقف أمام هذا الموقف فى حرج كبير زاد من حدته عنده أن جميع المحاولات الفردية التى رفضت هذا الاتجاه برمته قد باءت بالفشل ، وأضحى أصحابها بفرديتهم عاجزين عن إنجاح قضيتهم ، بل إن قصورهم فى نقض هذا الاتجاه ونقده يعتبر فى الحقيقة ترويجا له واعترافا به مهما وصفوه بعد ذلك بما يشجبه أو يحذر منه .

وهكذا وقعت قضية التفسير العلمى – لظروف عديدة ومتناقضة – ضحية إفراط بعض المهتمين بهذا الجانب من الدراسات القرآنية وتفريط بعضهم الآخر فى آن واحد ، ولو وقعت منهم موقع العدل الوسط ، وحظيت بنظرة فاحصة دقيقة ، بعيدة عن إفراط هؤلاء وتفريط أولئك – لاستوت المسألة على الطريق السليمة فى الدعوة إلى الله ، وامتدت جسور اللقاء بين المفكرين واسعة فى هذه الطريق تكشف عن وجوه الهداية القرآنية الشاملة لكل جوانب الحياة واهتمامات الإنسان تستوى فى ذلك علومه التقليدية والحديثة ، وكلها فى نظر الإسلام دين .

ثانيا : من ضرورات اهتمام المفكرين بهذا الجانب من الهداية القرآنية :

لعل من ضرورات الاهتمام بهذا الجانب من الهداية القرآنية فى الأنفس والآفاق – إزالة الغبار الكثيف الذى يثار فى وجه الدعوة الإسلامية ، وكشف

الحجب المصطنعة حول مصدرى الإسلام الأصليين القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، ثم إبراز كنوزهما المنوط بها هداية الإنسان فى كل زمان ومكان ، وما زال يرن فى أسماعنا ويهز قلوبنا قولة أحد أعداء الإسلام : « يجب أن نستخدم القرآن وهو أمضى سلاح فى يد المسلمين ضد الإسلام نفسه لنقض عليه القضاء المبرم حين نُرى هؤلاء الناس – يعنى المسلمين – أن الصحيح فى القرآن ليس جديدا ، وأن الجديد فيه ليس صحيحا »[1] .

فإذا أضفنا إلى ذلك أن تلك القولة قد أخذت صورة التطبيق العملى على نحو جاد ومثير فيما اعتنت به الدوائر المعادية للإسلام والمسلمين من دراسة الجوانب العلمية فى « كتبهم المقدسة » ، وتفريغهم الباحثين والعلماء لإبراز هذه الجوانب فى العهدين القديم والجديد – بدت لنا تلك الضرورة ملحة وعاجلة ، قبل أن يشوه اليهود والنصارى هذه القضية ، ويحيلوا وجوه الهداية القرآنية فى العلوم التجريبية والحديثة إلى أصول سابقة عليها فى الزمان[2] قد انبثقت عنها فى القرآن – على زعمهم – أو اقتبسها محمد من هذه الأصول على نحو ما طبقا لتلك المقولة السابقة .

وهذا الميدان من الموازنة بين الحق والباطل ، بين هدى الله من جهة ومعارف أخرى قاصرة ومشوهة من جهة أخرى – يُعَدُّ تجاهله نوعا من التفريط فى واجبنا نحو كتاب ديننا ونحو أمتنا على حد سواء ، أما الغفلة عنه أو التغافل فيعد هو الآخر نوعا من غيبة الحق وسلبية أصحابه تسمح على نحو كبير بترويج الباطل وإعلاء كلمة أصحابه .

إننا مطالبون اليوم – وبخاصة فى هذا العصر المتنكر للدين والقيم الروحية والخلقية ، المفعم بعلوم ومعارف لا عهد لأسلافنا بكثير منها ولا بطرائقها –

---

(١) راجع : الله أو الدمار – سعد جمعة ص ٧١ طبع المختار الإسلامى ١٩٧٦ م .

(٢) راجع : القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم – موريس بوكاى ص ٣٩ ، ١٠٤ وغيرها طبع دار المعارف ١٩٧٩ م .

بعمل جاد لخدمة القرآن الكريم ، وإتاحة فهمه للناس بروح تقدر هذا الواقع وتواجهه ولا تتهرب منه ، فترحب بما يظهر - على ضوء الهدى القرآنى - أنه حق وخير ، وفيه هدى ورحمة للناس ، وتدجض الزائف منه بالحجة والبرهان[1] ، فنواصل بذلك ما قام به سلفنا من واجبات نحو القرآن الكريم ونحو دينهم وأمتهم الإسلامية ، وقد بات ذلك الأمر من أوجب الواجبات على الأمة الإسلامية ومفكريها ، وذلك لاستدراك ما قد فاتهم فى عصور متطاولة من الدعوة الواعية إلى الله على هدى وبصيرة ، ولم يَعُدْ ذلك الأمر من قبيل التقليد المنهجى الذى تمتسخ فيه العقلية الإسلامية ، أو تجتث فيه أصالة الفكرة الإسلامية أو القرآنية ، كما لم يعد مثل هذا العمل منظوراً إليه باعتباره نوعا من الدفاع عن الإسلام كما كان ينظر من قبل إلى كثير من الأنشطة الإيجابية ، فلقد انتهى ذلك العهد من الطفولة الفكرية ، وأسفر الصبح لذى عينين ، وبات معروفا لدى القاصى والدانى من المهتمين بالفكرة والكلمة أن لا خلاص للإنسانية إلا فى هذا الدين ، ولا أمل لها إلا فيما يعطيه إياها من هدى يحقق لها ميلادها الإنسانى من جديد .

ثالثا : دعوة ونداء :

والسؤال الملح الآن والذى يفرض نفسه على وجدان الأمة وعقلها : إذا كان موقف المسلم العادى - بل ربما المثقف أيضا - على نحو لا يحسد عليه من العجز والتمزق ، راح فيه ضحية أوضاع فكرية وحضارية لا دخل له فيها ، فلا يدرى ما فى الأمر من خير يتوق إليه وينشده ، أو ما فيه من شر يحاذر منه ويرفضه ، وإذا كان ذلك أو نحو منه هو حال كثير من العلماء الذين اجتهدوا بشكل فردى فى رفض هذا الاتجاه فى الدرس القرآنى بحق وبغير حق[2] ....

---

(١) نحو منهج لتفسير القرآن - عرجون ص ٨٩ .

(٢) راجع : اتجاهات التجديد فى تفسير القرآن الكريم فى مصر - للمؤلف ص ٤٣١ ، ٥٣٤ ، ٦٤٤ طبع دار التراث ١٩٨٢ م .

فهل يمكن أن يكون هذا هو حال ذوى الرأى من علماء الأمة ومجتهديها بشأن هذه القضية ؟ وهل يمكن أن يمثل حالهم هذا موقف الإسلام ورأيه فى هذه المسألة ؟

وبعبارة أخرى : هل يمكن أن نظل أفرادا وأمما ، مثقفين وعلماء ، طلاب معرفة ومجتهدين ، معاهد وجامعات – على شقة حياد حول هذه القضية ؟ أو فى موقف النظارة والمتفرجين الذين لا يدرون ما يضرهم أو ينفعهم منها ، أو لا يفهمون ما يدور حولهم على مسرح الحياة وما يراد بهم وبكتاب دينهم ؟ وإذا جاز سكوت كثير من الناس على هذا الأمر ، فهل يمكن أن تجتمع الأمة – أو تتواطأ – على الوقوع فى إثم التفريط وعدم الاجتهاد للوصول إلى الموقف الصحيح ووجه الحق فى هذا الأمر ؟

وهل يكفى أن نظل هكذا حيال هذه المسألة إما متطرف مُفْرِط غارق حتى أذنيه فى قبول هذه المسألة لا يدرى ما يضره منها فى دينه ودنياه ، وإما رافض مُفَرِّط قانع بما لديه ، وصاد عن فكره وقلبه ما يمكن أن يكون فيها من حق ينفعه فى دينه ودنياه ؟

وهل يمكن أن يسهم المسلمون – من حيث لا يشعرون – فى تشويه صورة الإسلام بالجمود والتوقف ورفض المناقشة لما يطرح من درس حول القرآن الكريم ؟

أم أنه لابد من عمل شىء ما للخروج من هذا الموقف النكد والمتناقض والارتفاع بالمسلم عن مستوى الانفصام والانقسام بين ثقافته الدينية وقيمه الروحية التى يعتز بها من جهة ، وحياته العصرية التى لا تقوم فى كثير من جوانبها على وفاق مع هذه القيم الروحية والثقافة الدينية من جهة أخرى ؟

وإذا كان الأمر – كما ألمحنا – لا يمكن أن ينهض بعبئه وتبعته فرد واحد مهما أوتى من المعارف والعلوم ، فلا مندوحة من أن تقوم به طائفة من العلماء

المتخصصين فى جميع العلوم والمعارف الإنسانية التى عرض لها القرآن الكريم حيث تتشكل من هذه الكفايات العلمية فرق بحث وعمل يضمها جميعا مركز متخصص يُشرف عليه أحد الأقسام العلمية المتخصصة ، ويناط بهذا المركز تجلية الحقائق القرآنية بأسلوب علمى يبين للناس ما نزل إليهم من وجوه الهداية العامة والشاملة لكل جوانب الحياة واهتمامات الإنسانية فى سعيها الدائب نحو الرقى والتقدم والسعادة .

أما ما يمكن أن يثار فى وجه هذه الدعوة وذلك النداء من شكوك ومخاوف ، أو يشار إليه فى طريقها من محظورات وعوائق ، أو يزعم من عدم جدوى ذلك وفائدته للمسلم اليوم ، أو ما الأسس والضوابط التى تقوم عليها مثل هذه الدعوة ؟ أو ما الضمانات التى تنأى بجهود أصحابها عن ضروب التخبيط والتخليط والرجم بالظن ؟ وما المقصود بكلمتى « الإعجاز » و« العلم » الواردتين فى عنوان الدراسة فهذا كله تكفلت به الفقرات التالية .

رابعا : مخاوف وردود :

وعلى طريق الحيطة والحذر يبدى المعارضون للاهتمام بهذا النوع من الهدى القرآنى وتفسير القرآن الكريم على ضوء حقائق العلم ويقينياته الجازمة – كثيرا من التخوف والتحفظ غيرة منهم على القرآن الكريم ، وخشية أن تتعرض آياته لتأويلات منحرفة قد تلقى بظلالها على القرآن الكريم نفسه .

وهذا التخوف والتحفظ يتضمن – فى الحقيقة – اتهاما جائرا يؤخذ فيه البرىء بجريرة الآثم ، ويذهب فيه أصحاب التفسير العلمى القائم على الحقائق اليقينية ضحية حشوهم وشوبهم من أصحاب النظر الطائش وأدعياء الفكر والعلم مِمَّن يندفعون وراء الحدس الظنى والخيال الوهمى ، فهؤلاء المعارضون يحاكمون أصحاب التفسير العلمى بما ليس عندهم ولا هو من مبادئهم ، فالجهة بينهم منفكة ، حيث يجرى كل منهم فى ميدان غير ميدان الآخر ، ولو تكلموا

لغة واحدة ، وأخلص كل منهم طويته وتجرد للحق لتنبهوا إلى ما يمكن التقاؤهم حوله واتفاقهم عليه ، وعلموا أنهم يختلفون – فى الحقيقة – على غير خلاف حقيقى[1] .

ولعل غرابة أمر التفسير العلمى والاهتمام بهذا النوع من الهداية القرآنية نشأت عند هؤلاء المعارضين من تأثرهم ببدعة ما سُمِّى بالعلوم الدينية التى تخدم القرآن الكرم ولغته كالفقه والعقيدة والنحو والبلاغة وغيرها ، وما سُمِّى بالعلوم غير الدينية التى لا تخدمهما .

ولو امتد الزمن بهذه العقلية التى ابتدعت هذا التقسيم لكانت علوم الكون والطبيعة والحياة والنفس فى نظرها علوما دينية أدنى صلة بالإسلام من هاتيك السابقة ، فليس بعض من العلوم فى نظر المفسر العلمى دينيا وبعض آخر غير دينى ، وليس فى أمر القرآن الكريم بالعلم وتوجيهه العقول إلى موضوعاته ما يشير إلى شىء من ذلك ؛ لأن العلم الذى أمر به الله هو جملة المعارف التى يدركها الإنسان بالنظر فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ، قال تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾[2] .

وكل العلوم – بهذا المعنى الصحيح – هى علوم دينية ، بل إن خير عبادة الله أن يهتدى الإنسان إلى سره فى خلقه ، وأن يعرف حقائق الوجود فى نفسه ومن حوله ، ولهذا كانت الحكمة ضالة المؤمن وهو أولى الناس بها أنى وجدها ، وكانت كل معرفة صحيحة هى بالضرورة معرفة قرآنية إسلامية[3] ، وتشير تسمية الذكر الحكيم بـ« القرآن والكتاب » إلى معنى من الجمع والضم

---

(١) راجع : اتجاهات التجديد فى تفسير القرآن الكريم فى مصر – المؤلف ص ٧٤٣ .

(٢) انظر الآية رقم ٢٢ من سورة الروم ، وراجع معها الآيات من ٢٠ إلى ٣٠ من نفس السورة ، وانظر آيتى سورة فاطر ٢٧ – ٢٨ سابقتى الذكر .

(٣) راجع : التفكير فريضة إسلامية – عباس العقاد ص ٦٠ – ٦٣ طبع دار الهلال دون تاريخ .

لفنون المعانى والحقائق أدق وأبعد وأعم من جمع الآيات والسور وضم بعضها إلى بعض[1] .

وفيما يقوله هؤلاء المعارضون : إن الآيات التى حددت أهداف القرآن الكريم أبانت فى إيجاز أنه كتاب هداية تتمثل فى حدودها قيم الدين الكبرى ، وقد نجد فيه آيات تشير إلى بعض العلوم ولكنه لا يتوجه إليها مباشرة ، بل يكتفى بتشجيع المؤمنين على اكتساب المعارف وحسبه هذا[2] .

ومفهوم هذه المقولة – فى الحقيقة – يحصر أغراض القرآن الكريم ويقصرها على الهداية الناشئة عن التأمل فى مضمون ما يورد القرآن الكريم من آيات تتعرض للعلوم ، ولكن ألا يمكن أن يصحب هذا الغرض تضمن الآى القرآنى المتعرض للعلوم الحقيقة العلمية بوصفه كلام الله المعجز ؟ وبعبارة أخرى : إذا كان المقصود من تعرض القرآن الكريم للآيات الكونية والعلمية هو الهداية فحسب فهل يمكن أن يكون تعرضه لها على نحو يبعد عن الحقيقة العلمية ؟ ولماذا لا يكون من غرض القرآن الكريم تحقيق الهدفين معا كما نلحظه واضحا فى حديثه عن نشأة الجنين فى بطن أمه خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ؟

ولعل الباحث المحقق والمدقق إذا تدبر القرآن الكريم وأحكم النظر فيه ، وكان بحيث لا تعوزه أداة الفهم ولا يلتوى عليه أمر من أمره – واقف منه على إشارات كثيرة تومىء إلى حقائق العلوم وإن لم تبسط من أنبائها ، وتدل عليها وإن لم تسم أسماءها[3] .

فرسالة القرآن الكريم الحقيقية أنه كتاب لا تخلق جدته على الزمان ، وهديه للناس إنما يقوم على العقل والعلم الذى ينفع الناس ويدين له علماؤهم ،

---

(١) الإسلام – أهدافه وحقائقه – سيد حسين نصر ص ٤٥ طبع بيروت ١٩٧٤م .
(٢) نحن والقرآن – محمد عبد الله السمان ص ٤٠ طبع القاهرة ١٩٦٤م .
(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية – مصطفى الرافعى ص ١٢٨ طبع لبنان ١٩٧٣ م .

واحتواؤه هذه العلوم لتكون آية له كلما انتشر العلم بين الناس ، وحجة قائمة على أهل العلم كلما اخترقوا أستار الطبيعة ، وكشفوا عن حقائق الموجودات[1] حتى يتبين لهؤلاء وأولئك أن ما تضمنه القرآن الكريم من ذلك غير مخالف لما عرفوه من العلم الحق ، وسنن الله تعالى فى الخلق ، ولقد أجمل القرآن الكريم الكلام عن ذلك كله ، وعن آياته فى السموات والأرض وفى الآفاق والأنفس ، وهو إجمال صادر عمن أحاط بكل شىء علما ، وأمرنا بالنظر والتفكر والسير فى الأرض كى نعقل ونفهم إجماله بالتفصيل الذى يزيدنا ارتقاء وكمالا[2] .

خامسا : الإعجاز العلمى بين أهداف التفسير :

ثمة حقيقة أخيرة تجيب على ذلك التساؤل الذى يتردد فى صدور المعارضين لهذا النوع من الاهتمام بالهداية القرآنية فى الأنفس والآفاق وهو : هل المسلم – بحكم كونه مسلما مؤمنا بالكتاب الكريم وأنه من عند ربه – بحاجة إلى وجه جديد لإعجاز هذا القرآن سواء أكان هذا الإعجاز علميا أم غيره ؟

والحق أن ذلك الإعجاز المنشود والمسمى بالعلمىّ ليس كل ما يطلبه المفسر العلمى ، ولا هو أهم ما ينشده الدارس المفكر والمستنبط لهدى القرآن الكريم فى هذه الجوانب العلمية التجريبية ، إذ إن أياً منهما لا يستهدف تفسير القرآن الكريم بحقائق العلم فحسب ، إنما يطمح فى الوقت ذاته إلى تفسير العلم وتعضيد حقائقه بالقرآن الكريم ، وقد يبدو هذا الأمر غريبا ، ولكن ما عرفناه من التقاء الحقيقتين القرآنية والعلمية قاض بذلك ، فالخبر القرآنى يوضحه ويفسره العلم الحق ، كما أن هذا الأخير – فى طريقه إلى اليقين – يستوضح الخبر القرآنى ويسترشد به ، لما للآى القرآنى من سبق إلى تقرير الحقائق ليس فى

---

(١) معجزة القرآن فى وصف الكائنات – حنفى أحمد ص ٥ طبع القاهرة ١٩٥٤ م .
(٢) تفسير القرآن الحكيم – رشيد رضا ٢٣/١ طبع المنار ١٣٤٦ هـ .

ميدان العلم التجريبى فحسب ، وإنما فى كل الميادين والمجالات التى لا يطمح العلم إلى ارتياد آفاقها ، والأمثلة على ذلك كثيرة وكلها تشهد باقتفاء العلم أثر الخبر القرآنى الذى لم يبلغه العلم بعد ، كخبر القرآن الكريم عن الأرضين والسماوات وما بث فيهن من دواب وأمم أمثالنا ، ومنطق الطيور والدواب والهوام والحيوان ، والمنشأ المائى للمخلوقات الحية ، وزوجية النباتات وسائر المخلوقات الأخرى ... وغيرها وغيرها[1] .

وحيث ثبت أن كثيرا من الحقائق العلمية تتفق مع ما أشار إليه القرآن الكريم فى محكم آياته ، فإن تجاهل هذا فى مجال التفسير القرآنى ربما خلق فى نفوس المسلمين صراعا خطرا يهدد شخصيتهم ، ويورث المسلم انقساما حادا بين ثقافته الدينية وحياته العصرية ، فهذا التوافق بين حقائق الدين والعلم يخدم الجانب النفسى من المسلم المعاصر أكثر من خدمته لقضية الإعجاز ذاتها[2] ، فليس المسلم - بحكم كونه مسلما - بحاجة إلى إثبات إعجاز القرآن الكريم علميا بقدر ما هو بحاجة إلى بقاء الدين عاملا حيا فى نفسه ، فلا ينفرد العلم بالتأثير بلا مسيطر فيحدث تخريبه المدمر فى النفوس بازدياد اعتماد الناس على العلم ، وتناقص اعتمادهم على الإيمان ، وهذا التوازن السعيد بين العلم والإيمان هو الرسالة الحقيقية التى يحاول أن يضطلع بها المفسر العلمى اليوم[3] .

أما ما يكشفه التفسير العلمى من إعجاز فإنما يتوجه - فى الحقيقة - إلى غير المسلمين ، ويفيد فى إغلاق أبواب الإلحاد عندهم وعند من يجاريهم من ناشئة الشرقيين ومستغربى الفكر والثقافة ، حيث إن تأثيره فى عقول هؤلاء

---

(١) راجع : الإسلام فى عصر العلم - الغمراوى ٢٢٩ ، القرآن والعلم - أحمد محمود سليمان ص ٥١ طبع القاهرة دون تاريخ .

(٢) راجع : الوحى المحمدى - رشيد رضا ص ٣٣٥ طبع المنار ١٣٥٢ هـ ، وانظر التفسير ورجاله - ابن عاشور ص ١٤٧ ، طبع مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة ١٩٧٠م .

(٣) راجع : الفكر الدينى فى مواجهة العصر - عفت الشرقاوى ص ٤٤٤ طبع الشباب بالقاهرة ١٩٧٦م .

أعظم أثرا من البراهين العقلية والأدبية[1] .

سادسا : ضوابط وأسس :

هل بقى شىء يتساءل حوله معارضو الاهتمام بهذا النوع من الهداية القرآنية ويتخوفون منه ؟ نعم ، إنهم يقولون : ما لهؤلاء المفسرين العلميين والمهتمين بهذا النوع من الهداية القرآنية والقرآن الكريم ؟ والحال أن ليس لأقوالهم وآرائهم من سند أو ضابط إلا الرجم بالظن وتعسف التأويل ، ولىّ أعناق الآيات القرآنية لإنطاقها بما ليس من معناها ؟

والحق أن المفسر العلمى حين ووجه بهذا الاتهام من التخبيط والتخليط وضع بين يدى مهمته ورسالته من الضوابط والقواعد التفسيرية ما يضيف التزاما من قبله فوق ما عرف من شروط التفسير القديمة عامة ، ومن الغريب - حقا - أن تأتى هذه القواعد الضابطة - التى يضيق المقام عن عدها وشرحها - على لسان أصحاب الاتجاه العلمى والمهتمين بهذا النوع من الهداية القرآنية ، وهو الاتجاه الذى استهدف وحده - دون بقية الاتجاهات الحديثة فى تفسير القرآن الكريم شجبا واعتراضا ، ويوضح لنا ذلك الأمر تلك المفارقة العجيبة بين موقف هؤلاء ومن ينكرون عليهم اتجاههم ، ويدلنا فى الوقت ذاته على أن هؤلاء أصحاب قضية صحيحة لا زيف فيها أو ادعاء على عكس ما يشاع عنهم وما يتهمون به .

وإذا كنا قد أشرنا قبل إلى غيرة بعض الغيورين على القرآن الكريم من هذا الاتجاه فى درسه وتفسيره ، وحذرهم وتحفظهم فى هذا الأمر - وهى غيرة محمودة وحذر واجب فى كل ما يتعلق بالقرآن الكريم - إلا أن تلك الغيرة وذلك الحذر يتجاوزان حقهما وَحَدَّهما حين يذهب صاحبهما إلى حدّ المنع من المطابقة السليمة والصحيحة بين بعض آيات القرآن الكريم الكونية والحقائق

---

(١) راجع : اتجاهات التجديد فى تفسير القرآن الكريم فى مصر - المؤلف ص ٦٩٤

العلمية اليقينية المتصلة بموضوع تلك الآيات مما أثبته العلم الحديث ولم يكن معروفا للبشرية فى عصر نزول القرآن الكريم ، إنما حق تلك الغيرة على القرآن الكريم أن يستوثق أهلها أولا من أن القضية العلمية موضوع المطابقة هى حقيقة ثابتة عند أهلها من العلماء ، وأن ينظروا ثانيا فى المطابقة نفسها إن كانت قد جاءت على وجه صحيح فى اللغة ، وهل خلت من التكلف والتمحل المنهى عنهما ، أم لم يتوفر للمطابقة مثل هذه الضوابط .

ومعنى هذا أن الدارس هنا يأخذ نفسه بشروط مهمة ، ويلزمها بقيود وضوابط تمنع أن يكون عمله ضربا من المجازفة الخطرة ، إنه يطلب فى الحقيقة العلمية شرطا مهما لا يحيد عنه أبدا وهو توفر قدر من التواتر للحقيقة العلمية شبيه بالتواتر الذى بلغتنا به الآيات القرآنية ، وهكذا لا تفسر آيات القرآن الكريم فى الأنفس والآفاق إلا باليقينى الثابت من العلم لا بالفروض ولا بالنظريات التى لم تزل موضع فحص وتمحيص[1] .

إن الحقائق – والحقائق وحدها – هى سبيل التفسير الحق هنا ؛ لأنها كلمات الله الواقعية التى ينبغى أن يفسر بها نظائرها من كلمات الله القرآنية ، أما الحدسيات والظنيات فهى عرضة للتصحيح والتعديل – إن لم يكن للإبطال فى أى وقت – فسبيلها أن تعرض على القرآن الكريم بالقاعدة السابقة ليتبين مبلغ قربها منه أو بعدها عنه ، وعلى مقدار ما يكون بينها وبينه من اقتراب يكون حظها من الصواب والاعتبار .

أمر آخر هو موضع عناية هؤلاء واعتبارهم فى درسهم القرآن الكريم وهو عدم عدولهم عن حقيقة اللفظ إلى مجازه إلا إذا قامت القرائن الواضحة القاطعة التى تمنع من حقيقة اللفظ وتحمل على مجازه ، ومخالفة هذه القاعدة

---

(١) راجع : الإسلام فى عصر العلم – الغمراوى ص ٢٢٣ – ٢٥٩ ، وانظر : اتجاهات التجديد – المؤلف ص ٦٨٢ .

الأساسية اليسيرة قد أدى – عند بعض مفسرى القرآن الكريم من قبل – إلى كثير من الخطأ فى تفسير هذه الآيات القرآنية المتعرضة للأنفس والآفاق ، على حين أن المطابقة بين آيات القرآن الكريم والحقائق العلمية يكون أتم وأيسر كلما أخذنا بتلك القاعدة فى فهم هذه الآيات القرآنية وتفسيرها .

ودون تلك القاعدة أمور مهمة تسبقها حيث تراعى معانى المفردات اللغوية كما كانت عليه فى اللغة العربية إبان نزول الوحى على الرسول ﷺ ، والحذر مما طرأ على معانى المفردات من التطور والاستعمال ، ويجب التنبه هنا إلى التفرقة الحاسمة بين معانى المفردات اللغوية كما كانت عليه عند نزول القرآن الكريم وبين ما فهمه العرب والمفسرون منها على نحو من مجازية الألفاظ تارة حين استعصت على أفهامهم حقيقتها ، أو اتساقا مع ما أتيح لهم من معارف وتيسر لهم من علوم إلى ذلك الوقت مرة أخرى .

وعلى هذا الاعتبار لا تشكل أفهام السابقين – على جلالتهم – وتفسيراتهم للقرآن الكريم قيدا أو عائقا على دلالة العبارات على حقيقتها وحرفيتها التى هى أولى قطعا من غيرها مما يجر المفسرين إلى كثير من الخطأ فى التفسير ، على حين أن المطابقة بين الآى القرآنى والحقائق العلمية يكون أتم وأيسر كلما أخذنا بهذه القاعدة وتمسكنا بحرفية العبارة القرآنية(١) .

أما أهم الأسس التى يقوم عليها استخلاص هؤلاء لمضمونات اللفظ القرآنى ، وتكسب عملهم سنده ومشروعيته ، فهى مراعاة اللفظ القرآنى فى خطابه حال العرب ومشاهداتهم ومعارفهم ، ونزوله فى التعبير على مستوى ما يعرفونه ضمانا لهدايتهم ، ثم احتواؤه مع ذلك الحقيقة الأبدية التى يتجدد بها إيمان الناس كلما تكشفت لهم عصرا بعد عصر(٢) ، وهو أمر لا يعرف

(١) راجع : الإسلام فى عصر العلم – الغمراوى ص ٢٢٣ .
(٢) راجع : تفسير القرآن الحكيم – رشيد رضا ٤٠٢/١ ، وانظر اتجاهات التجديد ص ٧٣٨ .

ولا يوجد فى غير القرآن الكريم يمنحه الجدة الدائمة والثراء الذى لا ينفد ، ويعطى المتأملين فيه والباحثين فى أسراره مشروعية مستمرة وضمانا وسندا دائمين ، وتأتى أساليب القرآن الكريم فوق ذلك مستجمعة درجات الفهم ، وفيها الغاية - كل الغاية - لكل عقل صحيح ، يقرأها العالم فيستشف من خلالها علل الأشياء ، ويقرأها الحكيم فيلتمس منها أسرار الوجود ، ويقرأها غيرهما من الناس فتنقاد لها قلوبهم وعقولهم ، وترى الآى القرآنى فى علوه يداور المعانى ويخاطب الأرواح ويتألف الناس بهذه الخصوصية فيه حتى ينتهى بهم مما يفهمون إلى ما ينبغى أن يفهموا ، وحتى يقف بهم على نص اليقين ومقطع الحق[1] .

فسبحان من كان هذا كلامه وهديه والحمد لله رب العالمين .

تنبيهان :

بقى أن ننبه فى ختام هذه الدعوة إلى أمرين مهمين يتعلقان بعنوان هذه الدراسة :

أولهما : يدور حول لفظة « إعجاز » وهى كلمة توحى عند سماعها أو قراءتها بحصر اهتمامات المفسر العلمى أو المجتهد فى فهم القرآن الكريم وتفسيره فى دائرة الإعجاز فحسب - وليس من اللازم أن تنتهى جهود هؤلاء المهتمين بهذا الوجه من الهداية القرآنية أو الدارسين والباحثين إلى نتائج صحيحة دائما تدخل تحت مفهوم « إعجاز القرآن العلمى » باعتبار أن ما ينتهون إليه هو اجتهادات فى فهم القرآن الكريم .

ومن هنا كان التردد فى عنوان الدراسة مرة باستخدام الشائع والمعروف على الألسنة وهو لفظ الإعجاز ما دام المدلول مفهوما والمقصود واضحا - حيث لا مشاحه فى الاصطلاح كما يقولون - وإن كانت دلالة مصطلح

(١) راجع : إعجاز القرآن - الرافعى ص ٢٠٦ - ٢٠٨ .

« الإعجاز » على ما نريد غير دقيقة ولا سديدة ، ومرة أخرى باستخدام ما طرحناه بديلا لهذا اللفظ وهو هداية القرآن الكريم فى الأنفس والآفاق ، وهذا من شأنه أن يعطى المجتهد – منهجيا – فى هذا الميدان مرونة واسعة ؛ لأنه وهو دارس وباحث حين يقدم نتائجه على أنها اجتهادات منه فى تفسير الآى القرآنى وحسب يجنب نفسه كثيرا من أنواع التورط والزلل التى يمكن للأول أن يقع فيها وهو يقدم نتائجه على أنها الإعجاز القرآنى أو من الإعجاز القرآنى .

وثانيهما : يدور حول وصف العلمية ، وقد جاء ذكره فى عنوان الدراسة مرادا به العلم التجريبى فى موضوعه وطرائقه **على ما هو الشائع على ألسنة كثير من المفكرين بصرف النظر عن صحة هذا الشائع أو خطئه** ، وقد نبهنا على ذلك لما هو معلوم من أن لفظ العلم ذو مدلول واسع وشامل لكل حقول المعارف وميادينها بلا استثناء ، وإطلاقه هنا على فرع واحد أو ميدان واحد من ميادين العلم وهو التجريبى فحسب – فيه تضييق للواسع فضلا عن أن فيه تسليما بالرأى المغالط للفكر الغربى المعاصر فى إطلاقه لفظ العلم على ما يخضع للتجربة – ملاحظة واستقراء ومشاهدة – من الأمور المادية المحسّة وحسب وإخراج ما عداها من دائرة العلم .

وقد أشرنا قبل إلى سعة مدلول لفظ العلم فى الثقافة الإسلامية ، وأنه ليس فى أمر القرآن الكريم بالعلم ودوران هذا اللفظ فيه كثيرا ما يدل على اختصاصه بميدان دون آخر ، إنما يدل على جملة المعارف التى يمكن أن يصل إليها الناظر فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء سواء ما خضع منها للتجربة والملاحظة المباشرة كسائر الأمور المادية موضوع العلم التجريبى وما لم يخضع منها لهذا النوع من التجارب ويتأبى على العلم القائم عليها كأمور الغيب التى تفسر طرفى الوجود ولا تأتى المعرفة الصحيحة بها إلا من طريق الوحى وكتاب الله الكريم ، وعلى لسان المعصوم ﷺ .

الفصـــل الأول
المنهـــج المقتـــرح

الفصـــل الأول

المنهـــج المقتـــرح

تقديم عام :

هذه محاولة نطرح فيها تصورا مبدئيا لما ندعو إليه من منهج لدراسة « الهداية القرآنية فى الآفاق والأنفس » والإعجاز القرآنى العلمى ، وهى محاولة – كما قلنا – مبدئية وقابلة للمناقشة وإعادة النظر ، ولكنا نحسبها خطوة إلى الأمام فى هذا الميدان دونها التوقف أو الجمود أمام ما يثار من وقت إلى آخر حول القرآن الكريم وما فيه من حقائق عن الكون والحياة تذهل المتخصصين فى أى شأن من شئونهما على حين يغفل عن كثير منها أو لا يلتفت إليه كثير من المؤمنين بالقرآن الكريم وهم أحوج ما يكونون إلى الوقوف على هذه الحقائق لشحذ إيمانهم فى هذا العصر الذى تتخطفهم فيه الفلسفات الإلحادية والمذاهب الانحلالية ، ولا تألو جهدا أو تدخر وسعا فى إخراجهم عن ربقة الإيمان والتوحيد .

ولو أردنا استقصاء الآيات التى تتحدث عن الكون والحياة ومظاهرهما وتتضمن هذه الحقائق العلمية مع ما تهدف إليه من الهداية إلى الله – لضاق بنا المقام وما اتسع لذلك هذا التصور المبدئى ، وحسبنا – هنا – القول بأن القرآن الكريم قد قدم صورة كاملة للكون والحياة شاملة لجميع جوانبهما ، وهو فى كثير من آياته يعرض لهذه المظاهر منوها بعظمة مبدعها ونظام سيرها ، وينتهى بنا إلى الاعتقاد الجازم بأن الحقائق العلمية الكونية التى اهتدى إليها العلماء

وأصبحت مسلمات علمية لا يتطرق إليها الشك – تقف كلها وراء التصور الإسلامى للكون وتسير فى ركابه وتشهد بأنه التصور الحق الذى لا مناص من التسليم به والانقياد لمقرراته ، ولا غرابة فى ذلك لأن القرآن الكريم كما هو كلام الله تعالى فالكون خلقه وفعله ، وما دام الذى خلق هو الذى قال فمن البدهى ألا تتعارض حقيقة قرآنية (قولية) مع حقيقة كونية (مخلوقة) على ما هو المقرر لدى العلماء ونبهوا عليه كثيرا .

وليس من قصدنا فى هذا التصور ادعاء أن العلوم الكونية كلها قد وردت فى القرآن الكريم ، أو الزعم باحتوائه تفصيلات دقيقة لهذه العلوم ، وإنما قصدنا أن نؤكد على ما فى هذه العلوم من نفحات وجوانب دينية يؤدى فقهها إلى تعميق الإيمان بالله تعالى وقدرته وحكمته ، وحتى لو اتفق للعلم أن يتقدم بمعزل عن الإيمان فإنه يؤدى إليه ويأوى منه إلى ركن شديد[1] ، على نحو ما تهدى إليه الآيات الكريمات ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الْآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت ٥٣) ، ﴿ لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً ﴾ (النساء ١٦٦) ، ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (آل عمران ١٨) ، ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ... ﴾ الآية (يونس ٣٩) .

وحسب بنى آدم من سعيهم المبدع هذا الكشف عن بعض نواميس الكون وطاقاته المذخورة وأسراره المغيبة واعتمادها فى تطوير المنجزات الحضارية والإسراع بها وتسهيل سبل الحياة الطيبة على الأرض ، وذلك هو أحد أهداف القرآن الكريم الكبيرة التى دعانا إليها عبر حشد كبير من آياته البينات التى

---

(١) القضاء والقدر – محمد متولى الشعراوى ١١٨ طبع دار الشروق ١٩٧٥م إعداد أحمد فراج .

تقول : إن خلافتنا فى الأرض ليست سكونا فيها ولا خلودا إليها وإنما هى حركة وسعى وجهد وإبداع وكشف ومراقبة واختيار لإدراك سنن الطبيعة ونواميسها واعتمادها لتحقيق الهدف الذى استخلفنا الله من أجله على الأرض واستعمرنا فيها .

والحق أن هذه الدعوة كانت بمثابة منهج جديد فى البحث يقوم على التجريب والاختبار وينبع والإيمان من مورد واحد – كما أشارت إليه آية آل عمران السابقة – لكى ما يلبثا أن يصبا فى المصير الواحد ترقية الحياة الدنيا والسعادة فيها إلى جانب الفوز بالآخرة والنعيم فيها ، وهذا هو الذى مكن المسلمين من تحقيق نتائج حاسمة فى ميدان البحوث العلمية والتجريبية كان لها أثر فعال فى بناء الحضارة المعاصرة(1) .

وإلى جانب هذا « المنهج العلمى » لصياغة الحضارة الإسلامية على أسس مرتبطة بالعالم ومتطورة به قدم القرآن الكريم فى عدد من آياته بعض النماذج « العلمية » كمعطيات « جاهزة » تكشف عن بعض حقائق الكون وأسراره ونواميسه ، وأغلب الظن أن القرآن الكريم لم يرد بهذه الآيات أن يجعلها وسيلة اعتماد علمى فى ميدان التطور الحضارى لأن هذا لم يكن أوانه قد حان بعد ، ولم يكن المسلمون قد قطعوا سوى الخطوات الأولى فى هذا الدرب كما أنه لم يرد أن يعجز الأجيال الأولى بتلك الأمور التى لم يكونوا يدركون أبعادها الحقيقية ... وإنما أراد بها إعجاز أجيال تالية من أناس سيشهدون بأم أعينهم ومن خلال جهود علمائهم الدائبة مصداق هذه الحقائق والمعطيات على نحو ما يشير إليه قول الله تعالى فى آية فصلت المتقدمة ، ويؤكد هذا قوله تعالى إخبارا عن المشركين : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ... ﴾ (يونس ٣٩) وقوله تعالى مخاطبا رسوله ﷺ والمؤمنين :

---

(١) آفاق قرآنية – عماد الدين خليل ص ٢٩ دار العلم بيروت ١٩٧٩م .

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (النمل ٩٣)[1].

ويمكن القول هنا إننا مع القرآن الكريم بإزاء « قصد ثنائى » فلقد نزلت الآيات القرآنية فى بيئة ذات معالم وأوضاع حضارية معينة ، وفى زمان ذى ثقافة وفكر متميزين ... والقرآن الكريم ليس دستور بيئة معينة ووضع حضارى ثابت ، إنه منهج حركة أبدية فى المكان والزمان ، امتداد دائم فى الأرض وتطور فى الزمن لا يقف عند حد ، فكان على القرآن الكريم أن يواجه بإعجازه هذه الثنائية ، أن يخاطب وضعين ويكون واضحا فى كليهما :

أولهما : أبناء العرب والأجيال المعاصرة لهم بما يمتلكونه من إمكانات حضارية محدودة .

وثانيهما : الإنسان فى المكان والزمان المطلقين بما يحتويان عليه دائما من إمكانات حضارية تزداد تركيزا وتعقيدا يوما بعد يوم .

ولو وقف القرآن الكريم عند المرحلة الأولى وقدم آياته بحدود فهم العرب ومعاصريهم بحدود مكانهم وزمانهم وبإطار معطياتهم الحضارية لبقى — كأى مصدر وضعى وهذا غير ممكن لكلام الله — مأسورا فى حدود تاريخية لا يتجاوزها فى العمق والمساحة ، الأمر الذى يتعارض أساسا ومهمته الخالدة ، ولو أنه اتجه إلى تقديم آياته على صفة الشمول والاطلاق والتجريد كى تتواءم مع المكان والزمان الكليين لبعد واستعصى على أفهام معاصريه الذين نزل عليهم ، وهذا تعطيل لمهمته فى اتخاذ ذلك الجيل نقطة انطلاق فى التاريخ ، ومن ثم كان إعجاز الله يتمثل فى إحداث توافق عجيب بين المحدود والمطلق ، بين القريب والبعيد ، بين الظرف الراهن والبيئة المتناهية من جهة والمكان والزمان اللا متناهيين من جهة أخرى ، بين معالم حضارة معاصرة وأطر مفتوحة

---

(١) السابق ص ٣٠ .

لحضارة الإنسان فى كل مكان وزمان ، توافق يعطى لعدد من الآيات القرآنية قصدين : أحدهما خاطب البيئة التاريخية والظرف الراهن ، حرك العرب ودفعهم إلى الأمام لإنجاز المهمة الصعبة الملقاة على عاتقهم ، وثانيهما لا تحده حدود مفتوح لكل تطور ولكل إنجاز .

وعليه فإن كل تطور وكل إنجاز يمكن أن يزيدا فى إيضاح وتفسير هذا (القصد) المفتوح فى القرآن الكريم ، وننبه هنا إلى آن آيات القرآن الكريم لا تتضمن كلها هذه الثنائية فى القصد وإنما الأمر يقتصر على تلك الآيات التى تتعلق بالنواميس الكبرى التى يقوم عليها بناء الكون (رياضية ، أو طبيعية أو حيوية) ومن هنا كانت (الآيات العلمية) ميدان إعجاز عظيم يمكن أن يتقدم بها القرآن الكريم إلى أبناء كل جيل ، ويزداد الإعجاز بازدياد معطيات التطور العلمى والإنجاز البشرى فى حقول الرياضة والطبيعة وعلوم الحياة كما أعلن القرآن الكريم نفسه : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾(فصلت ٥٣)[1] ، ومن هنا كان على المفسرين المعاصرين ألا يتغاضوا عن هذا المعجز من القرآن الكريم بدعوى أنه ليس كتاب علوم ونظريات شرط ألا يتمحلوا تفسير الآيات ويرغموها على مطابقة المواضعات العلمية الراهنة التى لم تبلغ ولن تبلغ مرحلة اليقين المطلق وهو ما نعرض له بعد فى ضوابط ذلك التفسير لاكتشاف إعجاز القرآن العلمى ولهذا فإن قول بعض الغيورين أن القرآن الكريم ليس كتاب « علم » ولا يحوى – بالتالى – أية إشارات أو أصول علمية هو قول مردود بشهادة القرآن الكريم نفسه ، وقول البعض الآخر بأن ربط المعطيات القرآنية بنظريات العلم وكشوفه سيقود إلى نوع من التصادم بين الطرفين هو قول – فى الحقيقة – مردود كذلك ، فالقرآن الكريم لم يطرح إلا مبادىء علمية شاملة ونأى عن الجزئيات والتفاصيل بحيث إن أى تطور علمى أو كشف جديد لا

---

(١) آفاق قرآنية – عماد خليل ص ٣٠٥ – ٣٠٧ .

يمكن أن يكون إلا فى إطار من هذه المبادىء والمعطيات الشاملة من مثل ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (الأنبياء ٣٠)، ﴿اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾(الرعد ٢) ، ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات ٤٧) ويوم يحس الإنسان تناقضا واضحا بين معطيات القرآن الكريم والعلم وهو أمر بعيد الاحتمال فإنه لن يكون إلا نتيجة طبيعية لنسبية الحقيقة العلمية وعدم استقرارها وتغيرها الدائم من جهة وإلى يقينية القرآن الكريم ومعطياته التى منحنا إياها الله الذى وسع كل شىء علماً(١) .

وإذا كان القرآن الكريم قد حفز النهضة والحضارة الإسلامية ووسعهما من جميع جوانبهما فإنه بذلك قد قدم المثال الحىّ والواقعى على قدرته الدائمة على هذا الحفز وذلك الاستيعاب ، فقط يتهيأ المسلمون لحمل أمانتهم ويتأهبون لأداء رسالتهم نحو القرآن الكريم ويأخذون كتاب دينهم بقوة وعزم صادقين حتى يتكشف لهم عما تحتويه آياته ويضمره أسلوبه ، ففى القرآن الكريم مئات الآيات المشيرة إلى مختلف العلوم المتضمنة لحقائقها وأصولها ، وفى كل ميدان من ميادين الفكر أو شأن من شئون الحياة والكون نجد فى القرآن الكريم ما يفى بحاجات الأمم والحضارات والأفراد والجماعات ، ففيه ما يتعرض لعلوم الأجنة والتشريح والطب الوقائى والعلاجى والاجتماعى والنفسى وعلوم الفلك والجغرافيا والطبيعة والتاريخ والزراعة والنبات والحياة والوراثة والكيمياء والاقتصاد وغيرها وغيرها .

وإذا كان القرآن الكريم قد بنى تصور الدين للكون والحياة على أساس الغيب باعتباره المصدر اليقينى للمعرفة ، وجعل الوحى معيارا لكل معارف البشر وعلومهم – فإنه لم يرفض الواقع المشاهد وما يقوم عليه من معارف

---

(١) السابق ص ٣١ .

متنوعة ، بل إنه أكد فى الوقت نفسه على ضرورة التجريب والمشاهدة وأهميتهما ، واعتماد ما يحصله الإنسان من طريق حواسه وتعميق صلة العقل بما حول الإنسان فى الطبيعة والحياة والكون بعامة ، ثم تعميق هذه الصلة بنفس الإنسان من جهة أخرى لاكتشاف السنن والقوانين التى تسير عليها مخلوقات الله وتسخيرها لخدمة النوع البشرى ورقيه وتحقيق فكرة استخلاف الإنسان فى هذه الأرض وتعميرها(١) .

وحسبنا هنا هذا المثال الذى يعطينا أكثر من دلالة على ارتباط المسلم بالأرض واستثماره لعناصرها المشار إليها فى القرآن الكريم وعلاقة ذلك كله بأخلاقيات الإيمان ومتطلباته العالية لقد ذكر الله عنصر الحديد - مثلا - مرات كثيرة فى القرآن الكريم وأسمى سورة كاملة باسمه فى القرآن الكريم جاء فى آياتها قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحديد ٢٥) فهل ثمة أكثر من تسمية سورة كاملة باسم هذا العنصر المهم والخطير من عناصر الأرض وخاماتها دلالة على ارتباط المسلم بالأرض والواقع الذى يعيشه فيها ؟

وهل ثمة أكثر إقناعا لنزعة التحضر والإبداع والبناء التى جاء بها الإسلام لكى يجعلها جزءا أساسيا من أخلاقيات الإيمان وسلوكيته فى قلب العالم من هذه الآية التى تعرض خام الحديد كنعمة كبرى أنزلها الله لعباده وتعرض معها المسألة فى طرفيها اللذين يتمخضان دوما عن : « البأس الشديد » متمثلا باستخدام هذا الحديد كأساس للتسلح والإعداد العسكرى ، و« المنافع » التى

(١) راجع : الدين - محمد عبد الله دراز ص ٦٨ ، ٨٥ ، ١٠٠ طبع العالمية بالقاهرة ١٩٥٢م ، وانظر : ثقافتنا فى مواجهة العصر - زكى نجيب محمود ص ٢٣ طبع دار الشروق بالقاهرة ١٩٧٦م .

يمكن أن يحظى بها الإنسان من هذه المادة فى كافة مجالات بنائه ونشاطه « السلمى »[1] .

وهل ثمة حاجة للتأكيد على الأهمية المتزايدة للحديد بمرور الزمن فى مسائل الحرب والسلم أكثر من دلالة هذه الآية التى نبهت على أن الحديد كان على مدى الأعصر السابقة – وسيظل دائما – وسيلة من أهم الوسائل فى موازين القوى سلما وحربا ؟

إننا هنا بإزاء الحلقة أو المستوى الثالث من مستويات المنهج القرآنى فى التعامل مع الطبيعة تلك المستويات التى يعمل أولها فى إطار الإيمان والحكمة حيث التأمل العميق فى الكون والعالم من أجل الوصول إلى الله وإدراك قدرته الخلاقة وإحاطته الشاملة ، ويعمل ثانيها وثالثها فى الإطار (العلمى) إذ بينما يتجه أحدهما إلى حث الإنسان المسلم على دراسة الكون والعالم للكشف عن القوانين التى تحكمها ومحاولة الإحاطة بأكبر قدر منها فيما يعرف اليوم بالعلوم النظرية أو المحضة يتجه آخرها إلى تحريك الإنسان المسلم باتجاه استخدام هذه المعرفة العلمية للقوانين الطبيعية استخداما تطبيقيا فى واقع حياته من أجل تغيير هذا الواقع صوب الأحسن والأرق .

وليس هذا الموقف من خام (الحديد) بأبعاده المختلفة سوى مثل من الأمثال العديدة المنبثة فى القرآن الكريم حول هذه الحلقة الثالثة من حلقات التعامل مع الطبيعة والعالم ، إن كل موقف قرآنى يشكل وحدة عضوية لا تنفصم عراها يمكن أن نحظى بأبعادها وصيغتها النهائية بمجرد أن نجمع كل الآيات التى تعرض لهذا الموقف وتشكل مادته فى الاقتصاد فى الاجتماع فى السياسة فى الادارة فى النفس فى العلاقات الدولية فى استراتيجية الحرب فى العقائد فى المعاملات فى الآداب[2] ... فى كل قطاع من هذه القطاعات نلتقى

(١) آفاق قرآنية – عماد خليل ص ٢٣٣ .
(٢) راجع : ضوابط المنهج فى الصفحات التالية .

بعدد من المواقف المتكاملة المحبوكة التى تصنعها وتصورها وتمنحها شكلها النهائى مجموعة من الآيات المنبثة لأكثر من سبب موضوعى أو جمالى فى ثنايا القرآن[1] .

ويلفت النظر فى هذا التداخل العميق والارتباط الصميم فى آية الحديد بين إرسال الرسل وإنزال الكتب معهم وإقامة الموازين الدقيقة لنشر العدل بين الناس وبين إنزال الحديد الذى يحمل فى طياته البأس والمنفعة ثم التأكيد على أن هذا كله إنما يجىء لكى يعلم الله ﴿ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴾ و﴿ انَّ اللّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

إن هذا الموقف المتداخل يعود بنا إلى تأكيد ملاحظتنا أن الإسلام جاء لكى يشد الإنسان إلى الأرض ويدفعه إلى التنقيب فيها من أجل إعمارها وحماية هذا العمران ، وإلى أن المسلم لن تحميه وتنصره إلا يده المؤمنة التى تعرف كيف تبحث عن الحديد وتصوغه من أجل الحماية والنصر ، وأنه بمجرد أن يتخلى عن موقفه الفعال هذا ويختار مواقع الفرار والاتكال والانتظار السالب لمعونة الله فإنه يتناقض مع نفسه وعقيدته وإنه سينهزم لا محال ما دام قد أشاح

---

(١) وفى هذا الموقف الذى يعرض فيه القرآن الكريم لعنصر الحديد نلتقى بهذه السورة التى سميت باسمه ونتذكر معها آيات أخرى تذكر نعمة الله على نبيه وعبده داود بتسييل الحديد له أو بتعليمه كيف يسيل الحديد وهى بصدد الحديث عن البناء والإعمار والتصنيع ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يا جِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ . أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (سبأ : ١٠ – ١١) ، ونتذكر قبلها « ذا القرنين » وهو ينادى الجماعة المضطهدة ليمدوه بالحديد كى يعينهم به على مجابهة الأخطار المحدقة بهم ﴿ اتُونِى زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً . فَمَا اسْطَاعُوا انْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً ﴾ (الكهف : ٩٦ – ٩٧) ، وحتى آية سورة الحج تشير إلى قسوة الحديد وشدته فيما تصنع منه أدوات تعذيب أهل النار التى يقمعهم بها الله فتدكهم وتسحق عظامهم حتى النخاع ﴿ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ (الحج ٢١) وتعرض آية أخرى لإبراز هذه القوة الكامنة فى الحديد والتى تعتمدها الجماعة المسلمة فى إرهاب أعدائها فى عالم يضيع فيه ويداس من لا يملك القوة والقدرة على إرهاب أعدائه ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّنْ قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُم اللهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ (الأنفال ٦٠) .

عن هذه الحقائق القرآنية التى تكاد تصرخ بأعلى نبرة : إنه بدون الاعتماد الواعى المسئول البصير بمصادر القوة والبأس فلن يكون هناك نصر أو حماية للموازين العادلة التى جاء الأنبياء عليهم السلام بكتبهم وتعاليمهم لتنفيذها فى الأرض حتى لو حبس المؤمنون أنفسهم فى المساجد السنين الطوال يبكون ويتضرعون ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ (الفتح ٢٣)[1] .

وهكذا نجد أن تأكيد القرآن الكريم على الإيمان بالغيب (بداية الوجود ونهايته) اللتين وقف العلم أمامهما عاجزا مستسلما – لم يمنعه من التأكيد على التجريب والاختبار والنشاط العقلى والممارسة العملية بحيث تتسق هذه المعارف وتتوازى مع المعارف الغيبية اليقينية المطلقة ، فتعمق الإيمان بها وتدعمها كتفسير يقينى للوجود الكونى والبشرى على السواء بما فيهما من دقة وضبط وتوافق ونظام ، ويؤكد هذا أن ما طرحه القرآن الكريم حول بعض القوانين والسنن الكونية من معطيات فى حقول الحياة والطبيعة والفلك والنفس ... وغيرها جاء العلم معززا له وموضحا أبعاده وجوانبه التى خفيت على أفهام أجيال كثيرة فى الماضى وصدق الله العظيم : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت ٥٣) .

---

(١) آفاق قرآنية – عماد خليل ص ٢٣٧ .

من أهداف المنهج :

(١) ويأتى فى مقدمة أهداف دراسة الإعجاز القرآنى فى ميادين العلم التجريبى الحديث وحقوله إقناع غير العرب والإنسانية كلها بالقرآن الكريم وإثبات أنه من عند الله ، فالإعجاز العلمى للقرآن الكريم هو فتح جديد فى هذا المجال لأنه لما كان القرآن الكريم مخاطبا به الإنسانية كلها وأعجميها أكثر من عربيها فلابد لها من إعجاز آخر يضاف إلى الإعجاز البيانى والبلاغى واللغوى يقنعها وهو هذا الإعجاز « العلمى » الذى فيه من وسائل الإقناع للناس على اختلاف أجناسهم ولغاتهم ما يقره كل ذى عقل مجرد من الهوى والتعصب دليلا على أن القرآن الكريم من عند الله .

وقد بات هذا الهدف ضروريا فى ضوء ما هو معروف من أن إعجاز القرآن اللغوى والبيانى وقت نزوله لم يكن هو كل الأدلة والحجج على أنه من عند الله وقد جهد الناس قديما وحديثا فى الوقوف على أسرار إعجاز القرآن الكريم فلم يبلغوا من ذلك إلا قدر ما يغرف غارف من بحر زاخر وإن ظن أنه قد بلغ بغيته وأتى على مطلبه ، ولو لم تقم مباحث الإعجاز اليوم على الإيمان برسالة القرآن من العلم والمعرفة الشاملين لجميع فنونهما لم يكن عند كثير من معاصرى اليوم – وبخاصة خصوم القرآن الكريم – معجزا ، ولكان كثير من الأمم والشعوب يخرجون عن مقتضى التعجيز بقولهم : هذا القرآن على غير ما عهدنا ونعهد ، فأسلوبه وعباراته ، ومبانيه وألفاظه ليست من أساليبنا وعباراتنا ولا هو من مبانى لغاتنا وألفاظها ، كما أن أفكاره قاصرة على ما يعهد الأميون من المعانى والأفكار المعهودة لهم ، وليس فيه مما نعهد من المعانى والأفكار العلمية شىء ، ولهذا لا تلزمنا الحجة بهذا القرآن[1]

(١) الإسلام فى عصر العلم – الغمراوى ص ١٣٣ ، ٢٢١ .

وليت المسلمين اليوم لم يشغلوا عن القرآن الكريم بغيره من كلام البشر ، وليت من علمائهم طوائف ينفرون لتلقى صنوف العلوم الحديثة مع تمكنهم من علوم القرآن الكريم واللغة العربية فيجلو للإنسانية كتاب دينهم على النمط العلمى الذى فيه للإنسانية فى هذا العصر مقنع أى مقنع ، وليتهم ينتهون إلى هذا فيتداركوا ما فاتهم ويعدوا للدعوة إلى الله وإلى القرآن عدتها بعد أن أصبحت الإنسانية فى حاجة إلى دين الفطرة ، لا خلاص لها إلا به ، ولا أمل لها إلا فيما يعطيه إياها من هداية تحقق لها ميلادها من جديد .

(٢) وفيما يتعلق بالمسلمين تأتى ضرورة الكشف عن إعجاز القرآن الكريم العلمى كخطوة على طريق تجديد إيمان المسلمين بالقرآن الكريم وحمايتهم من أخطار الغزوات الفكرية ، وما أشد حاجة المسلمين اليوم إلى ذلك بعد أن أصبح أمرهم عجبا كله وتكاثرت عليهم الشبهات ، وخضعوا لغير تعاليم القرآن الكريم فى الاجتماعيات والطبيعيات كأنهم يؤمنون بالقرآن فى العبادات وحسب ، أما ما وراء ذلك فلا حول لهم ولا طول كأن ليس فى القرآن الكريم ما هو صلاح للبشرية عبادة واجتماعا وواقعا وغير ذلك .

وقد أرث ذلك الشعور عند المسلمين تقدم الغربيين العلمى فى الماديات ، فهم لا يكادون يصدقون أن الغربيين مخطئون – أو يمكن أن يكونوا مخطئين – فى اجتماعياتهم ، وهم قد بلغوا هذا المبلغ المذهل فى طبيعياتهم ، وليس يدفع هذا الخطر المحدق بإيمان المثقفين من شباب المسلمين إلا أن يثبت لهم من جديد أن القرآن الكريم كتاب الله حقا ، فهل يكفى فى هذا الأمر الوقوف عند حدود الإعجاز البيانى واللغوى وغيرهما مما كفى السابقين لما توفر لديهم من علم العربية وذوقها وإدراك أسرارها ؟

إن كثيرا من مثقفى اليوم لا يدرون كثيرا من علم العربية مما يدرك به هذا الإعجاز وهنا يأتى دور الإعجاز العلمى فى تجديد الإيمان وتثبيت قلوب الناشئة عليه .

(٣) وإذا كان القرآن الكريم هو حجة الله البالغة ، وموضع الحجة القاهرة فيه هو إعجاز الخلق فينبغى ألا يكون إدراك إعجازه موقوفا على بلغاء العرب ومن لف لفهم ، فإن الإنسانية كلها مخاطبة به ومطالبة بالتسليم له أنه كلام الله ، وهى أعجميها أكثر من عربيها ، ومع ذلك فلابد أن يتضح هذا الإعجاز لكل إنسان ولو كان أعجمى اللسان لتلزمه حجة الله إن هو أبى الإسلام ، وهذا النوع من النظر والاعتبار يقود حتما إلى أن إعجاز القرآن له نواح أخرى غير النواحى البلاغية واللغوية والتنبؤات التى كانت فى ضمير الغيب حين نزل القرآن الكريم ، ثم حققها الله فيما استقبل الناس من زمان .

والواقع أن موضوع الإعجاز ما يزال بكرا برغم كل ما كتب فيه ؛ ومن أهم نواحيه اليوم تلك الناحية التى لا يتوقف تقديرها والتسليم بها على معرفة لغة لا تتيسر معرفتها لكل أحد ، وهى الناحية العلمية من الإعجاز ، على أن يكون مفهوما أن تلك الناحية تشمل نفس الإنسان وكيف اقتادها القرآن الكريم طبق قوانين الفطرة ، كما تشمل الناحية التشريعية والتاريخية ، ثم الناحية الكونية .

(٤) ونواحى الإعجاز هذه المتعلقة بنفس الإنسان والكون والتى يشير إليها القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ... ﴾ (فصلت ٥٣) هى التى ينبغى أن يشمر المسلمون عن سواعدهم ويجدوا للكشف عنها ودرسها ، وإظهارها للناس ، ولن يستطيعوا ذلك حتى يطلبوا العلوم للاستعانة بها على تفهم ما اتصل بكل منها من آيات القرآن الكريم ، واستظهار أسرار هذه الآيات التى اتصلت بهاتيك العلوم جميعها .

ولا غرابة فى اتصال القرآن الكريم بالعلوم جميعها ، فما العلوم إلا نتاج تطلب الإنسان أسرار الفطرة ، والقرآن الكريم هو كلام الله فاطر الفطرة ، فلا غرو أن يتطابق القرآن والفطرة وتتجاوب كلماتهما وإن كانت كلمات

الفطرة وقائع وسننا وكلمات القرآن الكريم عبارات وآيات تتضح منها إشارات وتنبهم وفق ما اقتضته – وتقتضيه – حكمة الله فى مخاطبة خلقه ، ليأخذ كل عصر منها على قدر ما أوتى من العلم والفهم .

وهذا التدرج فى إدراك تمام المطابقة بين القرآن الكريم والفطرة أمر لا مفر منه فى الواقع ، ثم هو مطابق لحكمة الله سبحانه فى جعله الإسلام آخر الأديان وخاتمها وجعله القرآن الكريم معجزة الدهر أى معجزة خالدة متجددة يتبين للناس منها على مر الدهور وجوه لم تكن قد تبينت ، ونواح لم يكن أحد يعرفها من قبل ، فيكون هذا التجدد فى الإعجاز العلمى هو تجديد للرسالة الإسلامية ، كأنما رسول الإسلام قائم فى كل عصر يدعو الناس إلى دين الله ، ويريهم دليلا على صدقه آية جديدة من آيات تطابق ما بين الفطرة والقرآن الكريم .

وهذا النوع من الإعجاز يعجز الإلحاد أن يجد موضعا للتشكيك فيه إلا أن يتبرأ أصحابه من العقل ، فإن الحقيقة العلمية التى لم تعرفها الإنسانية إلا فى القرنين الأخيرين مثلا والتى ذكرها القرآن الكريم لابد أن تقدم عند كل ذى عقل دليلا محسًّا واضحا على أن خالق هذه الحقيقة هو منزل القرآن الكريم[1] .

(٥) كما يمكن أن يكون من أهداف الدراسة الوقوف على ما تم للعلم الوقوف عليه من الحقائق القرآنية من جهة كجرى الشمس ، وليل السماء ، وحركة الأرض بنوعيها ، وكريتها وغيرها ، ثم ترقب ما عسى أن يهتدى إليه العلم من الحقائق القرآنية الأخرى التى لم يقف العلم عليها بعد كخبر القرآن الكريم عن منطق الطيور والهوام والدواب والحيوانات ، وما بث الله فى السموات من دواب هى أمم أمثالنا ، ثم العثور على معلومات ومعارف عن

---

(١) الإسلام فى عصر العلم – الغمراوى ص ٢٢٢ .

الأرضين السبع التى ذكرها الله فى مقابل ما ذكره من السموات السبع ، حتى تعلم الإنسانية عند الوقوف على هذه الحقائق وتمكن العلم من الكشف عنها أن الله على كل شىء قدير وأنه قد أحاط بكل شىء علما ، وعلى علماء الفطرة من المسلمين أن يهتدوا فى بحوثهم بما أنزل الله فى كتابه الكريم من آيات تعرض لاهتماماتهم العلمية لعلهم بما يهتدون إليه يسهمون فى تجديد الإيمان عند المفتونين من نشىء المسلمين وشبابهم .

(٦) وقد تكون هذه الأهداف من الدراسة المقترحة فى هذا التصور طموحة جدا إلا أنها تبدو متواضعة غاية التواضع إذا عرفنا أن كثيرا من الحقائق القرآنية التى تعرض لها القرآن الكريم سواء فى الكون أو النفس هى من العموم والسعة بحيث لا ينهض بتفسيرها أو يفى به إلا علوم الفطرة جميعها لا فى حالتها الحاضرة فحسب ولكن فى كل امتداد لها فى المستقبل ، ولا يتم ذلك إلا بتعاون المخلصين من العلماء وتضافرهم فى كل ميدان من ميادين العلم ، المطلعين على القرآن الكريم العارفين بعلومه والمتشربين لروحه وهدايته .

ولا أقل علينا من أن نخطو – أو نحاول – الخطوة الأولى على الطريق ، ومهما تكن الخطوة أو المحاولة من التواضع أو الفجاجة فهى بداية على الطريق ، تعتصم بحسن النية وصدق التوجه ودون ذلك الجمود والتوقف .

تفصيل لضوابط المنهج :

(١) للإعجاز العلمى فى القرآن الكريم من الضوابط ما هو كفيل بطمأنة الناس وإزالة مخاوفهم نحوه وبخاصة أنه ما زال يوجد بين علماء المسلمين اليوم من يقول بعدم سلوك هذا الطريق خوفا على القرآن الكريم أن تفهم آياته على غير وجهها فيفسر القرآن الكريم بالرأى المنهى عنه فى التفسير ، أو بالنظريات العلمية التى هى عند أهلها ما تزال محل نظر وتمحيص .

وهذا الخوف غيرة مشكورة ولكنها تتجاوز حقها وحدها حين تذهب إلى حد المنع من المطابقة السليمة والصحيحة بين بعض آيات القرآن الكونية والحقائق اليقينية المتصلة بموضوع تلك الآيات مما أثبته العلم حديثا ولم يكن معروفا للبشرية فى عصر نزول القرآن الكريم ، إنما حق تلك الغيرة على القرآن أن يستوثق أهلها أولا من أن القضية العلمية موضوع المطابقة هى حقيقة ثابتة عند أهلها من العلماء ، وأن ينظروا ثانيا فى المطابقة نفسها إن كانت قد جاءت على وجه صحيح فى اللغة ، وهل خلت من التكلف والتمحل المنهى عنهما أو لم يتوفر للمطابقة مثل هذه الضوابط[1] .

ومعنى هذا أن الدارس هنا يأخذ نفسه بشروط مهمة ، ويلزم نفسه بقيود وضوابط تمنع أن يكون عمله ضربا من المجازفة الخطرة ، إنه يطلب فى الحقيقة العلمية شرطا مهما لا يحيد عنه أبدا وهو توفر تواتر للحقيقة العلمية شبيه بالتواتر الذى بلغتنا به الآيات القرآنية ، وهكذا لا تفسر كونيات القرآن الكريم إلا باليقينى الثابت من العلم لا بالفروض ولا بالنظريات التى لم تزل موضع فحص وتمحيص[2] .

---

(١) الإسلام فى عصر العلم – الغمراوى ص ١٧٥ .

(٢) من إشارات العلوم فى القرآن – عبد العزيز سيد الأهل ص ٥٩ – ٦٠ طبع دار النهضة بلبنان ١٩٧٢ م .

إن الحقائق – والحقائق وحدها – هى سبيل التفسير الحق هنا ؛ لأنها كلمات الله الواقعية التى ينبغى أن يفسر بها نظائرها من كلمات الله القرآنية ، أما الحدسيات والظنيات التى هى عرضة للتصحيح والتعديل – إن لم يكن للإبطال فى أى وقت – فسبيلها أن تعرض على القرآن الكريم بالقاعدة السابقة ليتبين مبلغ قربها منه أو بعدها عنه ، وعلى مقدار ما يكون بينها وبينه من اقتراب يكون حظها من الصواب والتقدير .

(٢) أمر آخر ينبغى أن يكون موضع العناية والرعاية هو ألا نعدل – فى فهم الآيات الكونية من القرآن الكريم وتفسيرها – عن الحقيقة إلى المجاز إلا إذا قامت القرائن الواضحة التى تمنع من حقيقة اللفظ وتحمل على مجازه .

إن مخالفة هذه القاعدة الأساسية الأصيلة اليسيرة قد أدى إلى كثير من الخطأ فى تفسير هذه الآيات – من قبل – على حين أن المطابقة بين آيات القرآن الكريم وآيات الفطرة تكون أتم وأيسر كلما أخذنا بتلك القاعدة فى فهم هذه الآيات القرآنية الكونية وتفسيرها[1] .

ودون تلك القاعدة أمور مهمة تسبقها حيث تراعى معانى المفردات اللغوية كما كانت عليه فى اللغة العربية إبان نزول الوحى بالقرآن الكريم ، والحذر مما طرأ على معانى المفردات من التطور والاستعمال ، ثم تراعى القواعد النحوية ودلالات النظم والتراكيب الظاهرة .

ويجب التنبه هنا إلى التفرقة الحاسمة بين معانى المفردات اللغوية كما كانت عليه عند نزول القرآن الكريم وبين ما فهمه العرب والمفسرون منها على نحو من مجازية الألفاظ مرة حين استعصت على أفهامهم حقيقتها ، أو اتساقا مع ما أتيح لهم من معارف وتيسر لهم من علوم إلى ذلك الوقت مرة أخرى .

وبذلك لا تشكل أفهام السابقين – على جلالتهم – قيدا أو عائقا على

---

(١) الإسلام فى عصر العلم – الغمراوى ص ٢٢٣ .

دلالة العبارات على حقيقتها وحرفيتها التى هى أولى قطعا من غيرها مما يجر بعض المفسرين إلى الخطأ فى التفسير ، على حين أن المطابقة بين الآى القرآنى والحقائق العلمية يكون أتم وأيسر كلما أخذنا بهذه القاعدة وتمسكنا بحرفية العبارة القرآنية فى فهم كونيات القرآن الكريم .

(٣) قد تفيد بعض ألفاظ القرآن الكريم معانى متعددة فيجمع بينها لا على التخيير ، وكذلك ينبغى أن تفهم كل عبارة قرآنية تفيد فى صحيح العربية أكثر من معنى لا يمنع منه مانع ، وهذا من خصائص كلام الله الذى لو شاء لأنزل العبارة القرآنية نصا فى معنى واحد إن كان وحده هو المراد ، وتلك الخاصية فى كلام الله إذا روعيت فى فهمه وتفسيره جلت من إعجاز القرآن الكريم هنا وجها جديدا عجيبا وذهبت بكثير من الخلافات بين أهل التفسير[1] .

ويمكن التمثيل لذلك بكلمة « تَصْدِيقَ » التى أتت وصفا للقرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (يونس ٣٧) ، فما بين يدى القرآن الكريم يفيد ما بعد القرآن ممتدا فى المستقبل ، كما يفيد ما قبل القرآن ممتدا فى الماضى إن لم يكن الأول أليق بالآية وأولى ، والامتداد فى الماضى يذهب إلى ما لا يعلم مداه إلا الله من بدء خلق السماوات والأرض قبل بدء خلق الإنسان ، والامتداد فى المستقبل لا يقف عند الغيبيات المتعلقة بأمور الدنيا ، ولكن يذهب إلى ما وراء ذلك مما يتعلق بأشراط الساعة ، وأمور القيامة ، ثم الحياة الآخرة ، والذى يرشح لهذه المعانى المتعددة مجىء الخبر عن القرآن مصدرا « تَصْدِيقَ » ، ومجىء متعلقه ﴿ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ مطلقا غير مقيد ليشمل المستقبل كما يشمل الماضى ، فحين يراد بهذا

---

(١) الإسلام فى عصر العلم ص ١٢٥ .

المتعلق الماضى وحده يجىء الإخبار عن القرآن الكريم على نحو آخر كما فى قوله تعالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ ...﴾ (المائدة ٤٨) .

(٤) ولعل من الضوابط هنا ما يجب أن يأخذ به المتعرض لتفسير الآيات من الحذر والحيطة ، والدقة فى المطابقة والاستنباط ، وعدم التورط فى تقبل نتائج سريعة لتجارب وتأملات خاصة لبعض الآيات القرآنية ، وإنما من الضرورى أن يكون موقف المفسر هنا مثل موقف علماء الفطرة عاما وشاملا ، وحيث إن من البدهى هنا استحالة التعارض والتناقض بين القرآن الكريم فى آياته ، والفطرة فى حقائقها ؛ إذ الكل حق من عند الله والحق لا يتعارض ولا يتناقض – فمن اللازم هنا عند فهم الآيات الكونية وحقائق الفطرة أن تكون المطابقة بينها وبين جملة ما يتصل بها وبموضوعها من الآى القرآنى لا بينها وبين آية واحدة قد يخفى معناها على الناظر ولا يتبين إلا فى ضوء بقية الآيات الأخرى[١] .

(٥) وعند هذه النقطة ينقلنا هذا الضابط إلى منهج الدراسة الذى ينبغى أن تجمع فيه الآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع الواحد ودراستها على نحو ما هو معروف فى منهج التفسير الموضوعى وتجارب بعض أصحابه الرائدة والناجحة فى هذا المجال[٢] ، ويلى استقراء الآيات القرآنية فى الموضوع الواحد استعراض أفهام المفسرين السابقين لها وتحديد مواضع اتفاقهم وافتراقهم فى هذه الأفهام وموازنة كل ذلك بما قاله العلم أخيرا فى حقائقه ويقينياته ، والاحتكام إلى الآيات القرآنية نفسها فى ضوء الضوابط سالفة الذكر ، على أن تكون الآيات – مع كونها حاكمة فى الأمر وقاضية – هى مفاتيح الموضوعات

---

(١) الإسلام فى عصر العلم – الغمراوى ص ٢٥٨ .

(٢) راجع : دراسة عن الجبال وأنواعها وما يتصل بها من ظاهرات طبيعية ، والحقائق العلمية حولها فى القرآن الكريم للدكتور الغمراوى . الإسلام فى عصر العلم ص ٢٦٩ .

ومقدمات القضايا فكأنها – وهى مفسَّرة – مفسِّرة لما بين أيدينا من أقوال المفسرين وأرائهم وحقائق العلم ويقينياته .

وأخيرا يأتى مع هذا الجمع والاستعراض الاستعانة بما هو فى سنة رسول الله ﷺ من الأحاديث الصحيحة التى تعرضت لهذه الموضوعات وتدل عليها الاكتشافات العلمية كأحاديثه فى مجال الطب الوقائى وقوام الإنسان فى المأكل والمشرب وغير ذلك وهى كثيرة كثيرة ، وكحديثه فى مجال جغرافية الأرض وتضاريسها القديمة الذى رواه أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجا وأنهارا وحتى يسير الراكب بين العراق ومكة لا يخاف إلا ضلال الطريق ، وحتى يكثر الهرج ، قالوا : وما الهرج يا رسول الله ؟ قال : القتل »[1].

والإشارة فى الحديث إلى ما كانت عليه الجزيرة العربية فى العصر المطير الذى زامن الزحوف الجمودية الأربعة فى شمال أوربا حيث ظهرت الأودية الهائلة التى احتلت قيعانها أنهار جارية كوادى فاطمة غربى الجزيرة ، ووادى الدواسر ووادى الرمة ، ووادى حنيفة فى شرقيها .

خلاصة تصور المنهج :

ويأتى محتوى المنهج ومضمونه منتظما جانبين :

الأول : منهما جانب نظرى تعرض فيه دراسة بعض الموضوعات التمهيدية العامة من مثل تنويه القرآن الكريم بعلوم التجربة وموضعها الصحيح من الدين ، ومنهج القرآن الكريم فى تضمنه الحقائق العلمية واحتوائها ، ثم

---

(١) راجع : الفتح الربانى فى ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى – أحمد عبد الرحمن البنا ٤٢/٢٤ طبع دار الشهاب بالقاهرة دون تاريخ – وفى تخريج الحديث قال صاحب الفتح : أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد مختصرا وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ، وأورده الحاكم فى المستدرك وقال : حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وأقره الذهبى باختصار .

الموازنة بين المنهج العلمى الحديث ومنهج القرآن الكريم من حيث وسائل كل منهما وما يدعوان إليه من خطوات فى الحصول على المعارف والحقائق والروح الجامع بينهما فى ذلك ، ومصادر كل منهما فى المعرفة وميادينها ، وأخيرا ما يتفرد به منهج القرآن الكريم فى هذا الأمر من ميزات لا توجد فى المنهج التجريبى ولا يطمح فى الوصول إليها .

أما الجانب التطبيقى فيعرض فيه بالدرس والتحليل لموضوعات عديدة مختارة مما وردت أصولها أو الإشارة إليها فى القرآن الكريم ، وجاء العلم معززا لها وموضحا فيما انتهى إليه من حقائقه اليقينية ، وذلك وفق منهج الدراسة المقترح والذى سجلناه فى الفقرة السابقة .

الفصـــل الثانـــى
دراســة نظريــة لموضوعات تمهيديــة

الفصل الثانى

دراسة نظرية لموضوعات تمهيدية

الإشادة بعلوم التجربة وعلمائها ومكانتهما فى الدين

ويأتى ذلك فى ايات كثيرة من القرآن الكريم نشير إلى بعضها ونسجل بعضا آخر فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ من مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة ١٦٤) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ والنَّوَى يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَىِّ ذَلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ . فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُم مِن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ . وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام ٩٥ — ٩٩) .

وقوله تعالى : ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا في السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (يونس ١٠١) .

وقوله تعالى : ﴿ اللهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ . وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ في ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَفي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ في الْأُكُلِ إِنَّ في ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الرعد ٢ – ٤) .

وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُون . يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ في ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ في ذَلَكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ في الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ في ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ . وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . وَأَلْقَى في الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (النحل ١٠ – ١٦) .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا في الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِيءُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (العنكبوت ٢٠) .

وقوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً

لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ . وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ . وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ . وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ . فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم ١٩ – ٣٠) .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ . وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (فاطر ٢٧ – ٢٨) .

ففي هذه الآيات وغيرها كثير لا يفتأ القرآن الكريم يدعو العقل إلى التفكير والأبصار إلى الاعتبار والآذان إلى الاستماع والقلوب إلى التدبر ، ومع ذلك لا ينفك يستدرج الناس إلى التماس أسرار الكائنات ويحفزهم إلى الكشف عن غوامضها والتنقيب عن دقائقها ، والعلماء بحكم تعاليمه يفقهون أنهم لم يؤتوا من العلم إلا قليلا وأن الله يخلق ما لا يعلمون ، وأن الكائنات خلقت مما يعلمون ومما لا يعلمون ، ويجدون أنفسهم بحكم آياته منهيين عن اتباع

الظن فى أحكامهم والميل مع الأهواء فى بحوثهم ، كما يجدون من آيات القرآن الكريم ما يرشدهم إلى مواطن التفكير والبحث ويعرفهم ما يتطلبون الوصول إليه من أسرار العالم ودقائق حكمه ، ثم نصحهم بالاعتراف بعجز عقولهم وعدم القطع بشيء فيما لا تبلغه أبحاثهم وجهودهم ، ويسألون أهل الذكر والاختصاص فيما لا يعلمون أو يكلون أمر ما لا يدركون إلى من يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير .

وهكذا لا يرتفع المسلم بفضيلة كما يرتفع بفضيلة العلم كما قال تعالى : ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (آل عمران ١٨) ، ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (الزمر ٩) ، ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾(المجادلة ١١) .

كما لا يسأل المسلم ربه نعمة هى أقوم وألزم من العلم فيما وجه الله رسوله ﷺ بقوله : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْماً ﴾ (طه ١١٤) ، والقرآن الكريم يعظ المخالفين له والمؤمنين به بعظة واحدة يراها مغنية عن كل العظات وهى التفكير فيقول تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا للهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ (سبأ ٤٦) .

منهج القرآن الكريم فى تضمنه الحقائق واحتوائها :

(أ) يتضح عند التصدى لتفسير كثير من الآيات الكونية الواردة فى القرآن الكريم فى ضوء ما أثبته العلم من حقائق أنها تنبأت بكثير مما لم تعرفه البشرية إلا بعد نزول القرآن الكريم بقرون عديدة ، ذلك أن القرآن الكريم يورد هذه الحقائق فى أسلوب حكيم خاص يفهم منه الناس وقت نزوله على قدر عقولهم وما يبدو لهم فى الكون من معارف ، ثم بتقدم العلوم والوصول إلى حقائق جديدة نجد آيات القرآن الحكيم تتفق معها ، وبذلك يتجدد إيمان الناس بإعجاز القرآن الكريم كلما ظهرت لهم حقائق يرون القرآن الكريم قد أشار إليها أو عبر عنها[1] .

ومثل هذا الأمر تفردت به اللغة العربية التى أنزل الله بها كتابه وأعدها إعدادا خاصا لحمل معانيه ومضامينه التى ناط بها هداية العرب وغيرهم ، ولهذا فقد اقتضت حكمة الله فى آياته الكونية أن ينزل القرآن الكريم فيها بأسلوب لا يصدم البدهى المسلم به عند الناس وقت نزوله ، ولا ينافى الحقيقة الكونية فى الوقت ذاته ، حتى لا يكون داعيا إلى تكذيب الناس به إذا يسر الله سبيل الكشف عنها لأولى العلم فى المستقبل .

وهذا من أعجب عجائب القرآن الكريم ، فإن التعبير عن الحقيقة الكونية بأسلوب يطابقها تماما ثم لا يصدم الناس فيما يعتقدون ولو كان معتقدهم مخالفا للحقيقة – هو أمر يعجز عنه البشر ولا يقدر عليه إلا الله الذى أنزل القرآن الكريم بالحق هدى للناس .

---

(١) الإسلام فى عصر العلم – الغمراوى ص ٢٥٤ ، ٣٢١ ، وراجع : مدخل إلى القرآن الكريم – دراز ص ١١٦ طبع دار القرآن بالكويت ١٩٧١ م .

وقد يتساءل هنا لماذا لم يصرح القرآن الكريم بحقائق الكون مباشرة وترك للزمن وجهود العلماء توضيحها واكتشافها ؟

والحقيقة أن الأمر فى الكونيات يختلف عنه فى الشرعيات ، فالأخيرة من حيث الاعتقاد والأحكام لابد من اتضاح الحق فيها تماما قبل وفاة الرسول ﷺ وإلا فاتت فرصة التصحيح والتوضيح ، أما الكونيات فتصحيح أخطاء معتقدات الناس فيها يمكن أن ينتظر حتى يستعد الناس ويتأهلون لتلقينها ، ويحين أوان إظهار الحق فيها على أيدى أهلها من علماء الفطرة ، بل إن آيات الله فى الكون من الجلال والعظم بحيث لا يحول تصورها على غير حقيقتها دون الاهتداء بها إلى الله[1] .

ومن هنا كان تفسير الآيات القرآنية الكونية فى كل عصر بعد عصر الرسول ﷺ على قدر علم أهله ، وكان فى كل تفسير من تعظيم قدرة الله جل وعلا وحكمته ما يكفى لحمل السامعين على تسبيح الله وتمجيده على ما كان أو قد يكون فى التفسير من بعد عن الحقيقة يجهله القائل والمستمع مع القصد إلى تلمس الحق والصواب عند كل منهما .

(ب) ولما لم يكن من المعقول ولا من المنتظر أو المتصور أن يشير القرآن الكريم – وهو كتاب دين وهداية إلى البشرية كلها – إلى أسرار الفطرة سرا سرا ، أو يذكر آيات الله فى الكون آية آية ، فكيف ضمن الله كتابه هذه الجزئيات ليكون حقا كما قال الله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل ٨٩) ؟

وحقيقة إن ما أودعه الله فى كونه من آيات وما ضمنه كتاب الواقع من أسرار الفطرة هو من الكثرة بحيث لا يكفى البحر مِدَاداً لكتابة ذلك كله

---

(١) الإسلام فى عصر العلم – الغمراوى ص ٢٥٤ .

كما قال تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ (الكهف ١٠٩) ، وقال : ﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سبعةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (لقمان ٢٧) .

ولكن إذا كان القرآن الكريم قد أشار إلى بعض الآيات الكونية لما أنها مشاهدة محسوسة كالشمس والقمر والنجوم والشجر والجبال والماء وأنواع الحياة ليلفت الناس إليها وإلى ما أودع فيها من أسرار عجيبة عساهم أن ينفضوا عنهم الغفلة التى ألقتها عليهم الألفة فيتدبروا ما ظهر لهم ، ويبحثوا عما خفى عليهم – فإن ما استتر من هذه الآيات عن حواس الإنسان ومشاهداته لا يمكن أن يحصى أو يعد ، ومع ذلك فقد أحاط القرآن الكريم به عن طريق التعميم لا التخصيص ، وعن طريق الكلى الذى يحيط بكل ما يندرج تحته من جزئى ، وهذا الطريق هو أقصى ما يفعله العلماء فى العلوم المختلفة إذا بلغوا منها غايتهم ، والقوانين الكثيرة التى يتوصلون إليها ، والسنن التى يكتشفونها هى من هذا القبيل[1] .

وما جاء من الآيات القرآنية الكريمة على هذا النحو كثير ، وآية سورة الأنعام تعطينا مثالا رائعا على ذلك حين تشير إلى أمم حيوانية من الدواب والطيور كأمة الإنسان ، ويأتى أسلوب الآية على نحو من الحصر يؤكد ويشمل كل ما يمكن معرفته عن هذه الأمم وحياتها ، فيدخل ذلك بإجماله فى معنى الآية ومضمونها ، ويعرف عن طريق العلم تفصيل هذا الإجمال وأنواع هذه الأمم ونظم حياتها قال تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ (الأنعام ٣٨)[2] .

---

(١) الإسلام فى عصر العلم – ص ٣٦٦ .
(٢) السابق ونفس الصفحة .

(ج) ومن منهج القرآن الكريم فى تضمنه للحقائق واحتوائها إشارته إلى ما يمكن للإنسان معرفته واكتشافه من مخترعات تطبيقا لما فتح الله به عليه من علم ، والآيات المتعلقة بهذا الموضوع كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة ١٢٩) ، وأعم من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية ١٣) ، ولم يكن هناك طريق لإحاطة القرآن الكريم بأنواع المسخرات فى السموات والأرض وأعداده إلا طريق الإشارة الكافية أو العبارة العامة (ما) إما لعدم وجود آحاد لأسمائها فى اللغة ، أو لامتناع أن تذكر بذاتها فى القرآن الكريم[1] .

والإشارات والعبارات العامة فى القرآن أنواع منها ما يأتى مقسما به من الله للفت الانتباه إليه كقوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ . وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الحاقة ٣٨ - ٣٩) ، فقد شمل هذا القسم كل ما يمكن أن يبصره الإنسان بحواسه أو بآلاته فى حاضره ومستقبله ، فهذا نص شامل لكل ما يمكن أن يكشفه العلم أو يخترعه العلماء ، بل ولما يدق عن أن تدرك أفراده آلة مهما دق صنعها وتقدمت كفاءتها ، ويشمل مع ذلك أيضا ما لا أمل للإنسان أن يبصره فى دنياه كباطن النجوم فى عالم المادة والملائكة فى عالم الروح ، ومثل ذلك قسم الله بقوله تعالى : ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ (الفجر ٣) ، وشمول ذلك لكل معدود ومحسوب واتصال ذلك بعناصر الأشياء وتركيباتها .

ومن العبارات العامة هنا ما قاله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ﴾ (المؤمنون ١٢) ، فعبارة السلالة فى خلق الإنسان تحتمل

---

(١) معجزة القرآن فى وصف الكائنات - حنفى أحمد ص ٣٧ وانظر الإسلام فى عصر العلم ص ٣٧٠

معانى كثيرة ، بل لا نجد معنى علميا فى خلق الإنسان الأول إلا انطبقت عليه . ولا يخفى أن هذه المسألة من أمهات المسائل الغامضة التى لا سبيل إليها إلا من الظن كأنها ليست من علم الإنسانية ، وكأنها تلتحق ببيان الروح فجاءت العبارة عنها كأنها (سلالة من علم) تتسع لكل مذاهب العلماء فيها .

وكما أحاط القرآن الكريم بخلق الإنسان أحاط بما يمكن أن يصل إليه من علوم أو مكتشفات تقوم على الحساب والتقدير الكمى والكيفى ، وهذا واضح أكثر ما يكون فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (القمر ٤٩) ، وقوله تعالى : ﴿ وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلونَ ﴾ (الصافات ٩٦) ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ (الحجر ٢١) ، وقوله تعالى : ﴿ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ (الفرقان ٢) ، وقوله تعالى : ﴿ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى . وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ (الأعلى ٢ - ٣) .

(د) وبالإضافة إلى الإشارات العامة تأتى الإشارات الخاصة ببعض العناصر المادية والدلالة عليها بأوصافها وخصائصها ومنافعها ثم مواطنها كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ . وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (فاطر ٢٧ - ٢٨) ، فمعظم الخامات التى تدخل عناصرها فى الصناعات والاختراعات لها هذه الألوان الثلاثة - إما بالاختصاص فى بعضها أو بالتمازج بنسب محددة فى بعضها الآخر - مثل الألمنيوم والنحاس والحديد ، وأهم الخامات فى هذه الجبال خامات الحديد وقد صرح الله بقوته ومنفعته للناس وأشار إلى مصدره بلفظ الإنزال فى قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ

بِالقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحديد ٢٥)[١] .

وقد أثبت التحليل الطيفى لخام الحديد أنه من جنس عنصر النجوم والشمس التى انفصلت عنها الأرض انفصالا أشار إليه القرآن الكريم فى آية خلق السموات والأرض فى قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنبياء ٣٠) .

(١) الإسلام فى عصر العلم ص ٣٨٤ - ٥٨٥ وانظر المنهج المقترح ص ٢٨ - ٣١ .

المنهج العلمى الحديث قرآنى طريقة وروحا وموضوعا

للنظر العلمى والبحث عن قوانين الأشياء أدوار ومراحل متعاقبة ، تبتدىء بجمع الظواهر بالمشاهدة والملاحظة وهو الأساس الذى يقوم عليه بناء البحث العلمى ، وهذا الدور البارز والأساس فى المنهج العلمى هو دور بارز عند علماء الحديث والسنة النبوية من المسلمين ، وهذا التشابه والالتقاء دليل عملى على أن الطريقة العلمية فى هذا الدور هى طريقة قرآنية لاهتداء علماء الفطرة (الطبيعة) والدين إليها مع اختلاف الزمن بينهما واستقلال كل عن كل[1] .

ويأتى بعد دور جمع الظواهر واستقرائها دور تصنيفها وتبويبها ، وضم الشبيه إلى شبيهه حتى يمكن تفسيرها جميعها بالقانون (السنة) الذى يحكمها ، والحقيقة الكلية التى تنتظم أو تنظم هذه الحقائق الجزئية كلها .

ثم يأتى دور اكتشاف القانون ويقوم عمليا بافتراض الباحث فرضا يستنبطه من ملاحظاته ومشاهداته على موضوع البحث ، ومفصلا على الحقائق الجزئية الملاحظة ويظن أنه المفسر لها ، ثم يختبر هذا الفرض لينظر أصحيح أم لا ، ويظل اختبار الفرض قائما بضم وقائع مشابهة وحقائق جزئية جديدة تؤكد صحة الافتراض الذى يرق إلى النظرية ، وباستقراء الوقائع الشبيهة وانطباق النظرية عليها تصبح النظرية قانونا عاما وحقيقة علمية مؤكدة ومعتبرة .

---

(١) راجع : الإسلام فى عصر العلم ص ٤٢ .

وهذه الأدوار فى طريقة اكتشاف السنن والقوانين هى نفسها طريقة علماء الشريعة فى اجتهادهم فى كشف حكم الله بعد التأمل فى آيات القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية باعتبارها آيات الله المنزلة ، والمناظرة لآياته وكلماته الكونية الواقعة والنافذة .

فالمتأمل فى القرآن الكريم والمترحل بين آياته يرى فيه من مناهج البحث العلمى - كما لابد أن يشهد الدارسون المنصفون - مناهج قويمة منيرة وموصلة ، فلقد كان العرب - قبل القرآن الكريم - مثل نظرائهم البدائيين - يقيمون معارفهم الدينية وغير الدينية على أساس العادات والخرافات والأوهام ، وعلى ما يقوله ويفعله الكهان وأصحاب السلطان ، ومن ثم كان هؤلاء وأولئك - فى مجال المعرفة - يسقطون غالبا فى الخطأ ، وكانوا أضعف من أن يتخلصوا من التفكير الذاتى Subjctive وينصرفوا إلى التفكير الموضوعى Objective فضلا عن أن يحصلوا علما يقينيا أو يستنبطوا قانونا علميا ، فلما نزل القرآن الكريم كان هو نفسه - بمناهج البحث التى سار عليها والتى دعا إليها - مثلا عاليا يتبع ومعلما هاديا يسترشد .

ومن مناهج البحث فى القرآن : النظر والمشاهدة وإعمال العقل والتجريب وجمع الأدلة وسؤال المتخصصين والتحرر تماما من الأهواء والجهالات ، وواضح أن هذه المناهج القرآنية هى - على الحقيقة وكما سوف نرى فى الفقرات التالية - أم المناهج العلمية الحديثة ، ولا علينا هنا أن بعض المسلمين تخلفوا حينا من الدهر فغفلوا عن قدر هذه المناهج المستقيمة ولم يتفيأوا ظلالها الوارفة ، فإن القرآن الكريم شىء وأتباعه شىء آخر ، ولعله من المسلمات أنه إذا عرا الأتباع يوما خمول أو غفلة أو قصور فالعيب عندئذ هو عيبهم هم وما ظلمهم المتبوع ولكن كانوا أنفسهم يظلمون[1] .

---

(١) فى مناهج البحث الاجتماعى فى القرآن الكريم لبيب السعيد ص ٦١ - ٦٢ طبع دار عكاظ بجدة ١٩٨٠ م .

وأولى خطوات هذا المنهج العلمى فى القرآن الكريم هى النظر والمشاهدة التى لا يفتأ ينبه القرآن الكريم عليها كثيرا لما أن النظر إلى الأشياء أو مشاهدتها بقصد إدراك الحالة التى عليها هو أمر يسير وقريب إلى الفطرة الإنسانية عامة ، وعلى عادة القرآن الكريم فى انتهاج أقرب الطرق وأيسرها إلى غايته يوجه – فى سياسته البحثية – إلى « النظر » والمشاهدة فى أولى خطوات البحث العلمى ، يقول الله تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَباً وَعِنَباً وَقَضْباً وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً وَحَدَائِقَ غُلْباً وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ (عبس ٢٤ – ٣١) .

والقرآن الكريم يقصد من النظر والمشاهدة هنا أن يتأمل الناس هذه النعم الكثيرة والحكيمة كيف خلقت ، فعندئذ يؤمنون بخالقها القادر ويشكرون له ويوقنون أنهم سيخرجون من الأرض بعد موتهم وذلك « استدلالا بالنظير على النظير » كما يقول ابن قيم الجوزية[(١)] .

ويقول الله تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ . إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ (الطارق ٥ – ٨) والإجراء الذى يأمر به منهج البحث هنا سهل قريب ومع ذلك فهو يفضى إلى نتيجة ذات خطر : الإيمان بالله الخالق القادر وبالبعث والنشور والحساب فى اليوم الآخر يقول ابن القيم فى المقصود من هذه الآية : « إنه سبحانه دعا الإنسان أن ينظر فى مبدأ خلقه ورزقه فإن ذلك يدله دلالة ظاهرة على معاده ورجوعه إلى ربه »[(٢)] .

وآيات القرآن الكريم التى تنهج الطريق للبحث العلمى السليم بالغة الكثرة سواء كانت غايتها إقناع الناس بحجج الإيمان وقضايا الألوهية والعقيدة

---

(١) إعلام الموقعين ١٥٩/١ تحقيق الوكيل طبع دار الكتب الحديثة ، وغير خاف أن عبارة ابن القيم على وجازتها وقدمها هى إشارة مجملة إلى منهج البحث المقارن المقول بأنه جديد ومستورد .
(٢) السابق ١٥٩/١ .

أم كانت غايتها مع ذلك إيقاف الناس على حقائق الوجود والكون سواء فى أنفسهم أو فى الآفاق من حولهم . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾(العنكبوت ٢٠) ، ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (يونس ١٠١) ، ﴿ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام ٩٩) ، ﴿ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ (الروم ٥٠) ، ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ . وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ (ق ٦ - ٨) .

وإذ كان النظر هو أصل أصول هذا المنهج والمشاهدة أسه ولبه وجدنا القرآن الكريم يشير إلى المستوى المطلوب فى كل منهما فالنظر العابر والمشاهدة العجلى ليسا بالتأكيد مطلوب القرآن الكريم ولا هما من منهجه العلمى يقول الله تعالى : ﴿ وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (الأعراف ١٩٨) ، ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾ (الأعراف ١٤٩) وإنما المطلوب هذا النظر الواعى المتأمل والمشاهدة المتبصرة المتفكرة والمعتبرة يقول تعالى : ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾(الحشر ٢) ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الأَبْصَارِ ﴾ (آل عمران ١٣ ، النور ٤٤) .

ولا يتأتى هذا الاعتبار والتأمل للنظر والمشاهدة إلا بتدريب وسائلهما من حواس الإنسان المدركة ومنافذه الطبيعية للمعرفة وبخاصة السمع والبصر واستعانة الإنسان بوسائل أخرى وآلات يصطنعها لتزيد فى مدى ملاحظاته ومشاهداته العلمية ثم إعادة النظر والمشاهدة كرة بعدة أخرى ونلحظ هذا واضحا فيما أشار إليه القرآن الكريم من ملحظ هامشى لفت إليه أنظار المشاهدين والناظرين وهم يمرون صباح مساء على آثار السابقين حتى يتبينوا حقيقة ما صاروا إليه ويرفعوا الأستار عن هذه الحقائق ويعينوا عقولهم على

الفهم والعلم والحكم قال تعالى : ﴿وَإِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ . إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ . ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ . وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الصافات ١٣٣ – ١٣٨) .

ومجالات النظر والمشاهدة مبثوثة فى الكون والأنفس وقد عبر الله عنها بالآيات وأجملها فى قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (فصلت ٥٣) ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ (النمل ٩٣) وآيات الحق هذه يذكرها القرآن تفصيلا خلال آيات القرآن البينات ويدعو بها عباده إلى عالم الحس والاستشهاد به ولينزل بفكرهم إلى الواقع القريب بعيدا عن التفكير النظرى المجرد ؛ لأنهم إن عموا عن هذا الواقع المادى فهم عن غيره أكثر عمى وأبعد عن الحقيقة ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ (الإسراء ٧٢) .

ثم لابأس بعد النظر والمشاهدة وتكرارهما من معاينة كبرى وتجارب عملية على المنظور والمشاهد كوسيلة للتيقن فحينما رأى إبراهيم عليه السلام حوتا ميتا بعضه فى البر وبعضه فى البحر قد تعاوره دواب البر ودواب البحر وطير الهواء فتفكر : متى يجمع الله هذا من بطون هؤلاء ؟ فسأل إبراهيم حينئذ ربه أن يريه رؤية العين كيف يحيى الموتى ليسكن قلبه ويهدأ باليقين ويزداد إيمانا مع إيمانه ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ، قَالَ : أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ : بَلَى ، وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ... ﴾ (البقرة ٢٦٠) واستجاب الله لإبراهيم وأمره أن يجرى بنفسه تجربة عملية تحقق مأمول إبراهيم وتوضح ما أراد استيضاحه ، ﴿ قَالَ : فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (البقرة ٢٦٠) وهكذا جعل الله التجربة العملية أساسا للمعرفة اليقينية العينية . وفيما أخبر الله عن هلاك الأمم السابقة كعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم لا يدع هذه الأخبار الصادقة مجرد قضايا قد يتلقاها الكفار بالتكذيب إنما ينبه

الناس إلى أن فى وسعهم أن يروا رأى العين آثار هذه العقوبات التى مضت عليها القرون فتكون الحقائق بعد المشاهدة الفعلية أمثل والعبرة بها أفعل ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَامِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (العنكبوت ٣٥) وهذا الإجراء التوضيحى العملى سهل على الكفار فهم – عند خروجهم الكثير للتجارة وطلب المعيشة – يمشون فى مساكن أولئك الغابرين المهلكين أو يمرون على خرائبهم فلا تفوتهم العبرة لو أرادوها ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُم كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَاكِنِهِمْ ﴾ (طه ١٢٨) ، ﴿ وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ ﴾ (العنكبوت ٣٨) .

ويمكن القول بعد هذا أن دعوة القرآن لكريم إلى النظر والمشاهدة لآيات الحق فى الأفاق والأنفس ، ثم التجريب وتكرار النظر والمشاهدة هى السر الذى يكمن وراء التفوق العلمى الذى أحرزه المسلمون فى عصورهم الأولى فى مجال البحوث الكونية – وهو ما يطلق عليه اسم العلوم التجريبية – كالطب والصيدلة والكيمياء والفيزيا والنبات والحيوان والميكانيكا والفلك – هذه العلوم عرفها المسلمون وأسهموا فيها وتقدموا بها وهم لما يتخطوا قرنهم الثانى الهجرى بينما مضى نحو ستة عشر قرنا على ظهور النصرانية قبل أن يظهر فيها عالم فلكى واحد .

واستجابة لهذه الدعوة القرآنية رأى علماء المسلمين الاشتغال بالقضايا والمسائل والأبحاث العلمية ضرورة وواجبا يحثهم عليه الدين واجتهدوا كثيرا فى إحلال التصور الإسلامى عن الكون والحياة محل التصورات الخاطئة عند أصحاب الفلسفات والديانات السابقة ، وصحيح أن بعض مجتهدينا قد صرف فرضية العلم على كل مسلم المشار إليها فى حديث الرسول ﷺ « طلب العلم فريضة على كل مسلم »[1] لا إلى العلم بمعناه الشامل سواء كان دينيا نقليا أم

(١) أخرجه ابن ماجه فى مقدمته عن أنس بن مالك باب فضل العلماء والحث على طلب العلم ، راجع شرح السنة – البغوى الفراء ٢٩٠/١ تحقيق الأرناؤوط والشاويش طبع المكتب الإسلامى بيروت ١٤٠٠هـ .

كونيا تجريبيا حيث قالوا بفرضية الأول عينا وفرضية الثانى كفاية[1] ، فإن هذا التفريق لا يهون – أو يقلل – من شأن فرض الكفاية ، والذى يرجع إلى علم الأصول يرى الأهمية البالغة التى ينوطها علماء الأصول بفرض الكفاية هذا الذى يبلغ من حيث أثره فى المجتمع والأمة درجة لا تدانيها بحال درجة فرض العين .

ولقد سُئِل صاحب القواعد والفوائد فى أصول الفقه أيهما أفضل : فاعل فرض العين أم فاعل فرض الكفاية ؟ ثم قال : والجواب : منهم من يقول : فاعل فرض العين لأن فرضه أهم ومنهم من يقول : فاعل فرض الكفاية لأن فرضه أعم[2] .

لكن صاحب كتاب « تنبيه الغافلين » قد رجح قائلا : « القيام بفرض الكفاية أفضل من القيام بفرض العين لأنه لو ترك المعين اختص هو بالإثم ولو فعله اختص بسقوط الفرض ، وفرض الكفاية لو ترك أثم الجميع ولو فعله سقط الحرج عن الجميع ففاعله ساع فى صيانة الأمة من الإثم ولا يشك فى رجحان من حل محل المسلمين أجمعين فى القيام بمهم من مهمات الدين والله أعلم »[3] .

ثم يأتى من بعد النظر والمشاهدة للأشياء والتجريب عليها مرحلة أخرى من مراحل البحث المنهجى يتم فيها إجراء له أهميته الكبرى فى أية دراسة وفى محاولة التوصل إلى نتائج صحيحة وصالحة لأن تستخرج منها قواعد عامة ، وفى هذا الإجراء – من حيث الكيفية ومن حيث الثمرة – مشابه كثيرة من عملية يحث القرآن الكريم عليها دائما فى مجالات البحث والدراسة تلك هى عملية التدبر والتفكر فى الموضوعات والأشياء أى إعمال العقل فيها جملة

---

(١) راجع : شرح السنة : البغوى الفراء ٢٨٩/١ .

(٢) القواعد والفوائد – على بن عباس البعلى الحنبلى ٨٠٣ هـ ص ١٨٨ تحقيق محمد حامد الفقى طبع أنصار السنة بمصر .

(٣) تنبيه الغافلين – ابن النحاس ٨١٤هـ ، ص ١٧ – ١٨ تحقيق عبدالله بن حميد طبع الرياض .

وتفصيلا واستنتاج قوانينها وجنى ثمراتها والإفادة منها .

ففى قول الله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً ﴾ (النساء ٨٢) يذكر المفسرون أهداف تدبر القرآن على نحو يذكرنا بالأهداف التى يتحراها الباحثون المحدثون حين يحللون معطيات مشاهداتهم ومرئياتهم التى بين أيديهم يقول الطبرى فى تفسير هذه الآية : « أفلا يتدبرون القرآن فيعلموا حجة الله عليهم فى طاعة النبى ﷺ واتباع أمره وليروا اتساق معانيه وائتلاف أحكامه وتأييد بعضه بعضا بالتصديق وشهادة بعضه لبعض بالتحقيق فإن ذلك لو كان من عند غير الله لاختلفت أحكامه وتناقضت معانيه وأبان بعضه عن فساد بعض »[(١)] .

ويقول الشوكانى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (محمد ٢٤) : « والمعنى أفلا يتفهمونه فيعملون بما اشتمل عليه من المواعظ الزاجرة والحجج الظاهرة والبراهين القاطعة التى تكفى من له فهم وعقل وتزجره عن الكفر بالله والإشراك به والعمل بمعاصيه »[(٢)] فالمفسر هنا يوضح أهداف هذا التدبر بما لا تتجاوزه غاية الباحثين المحدثين حين يعكفون على البيانات يحللونها علميا ويستقطرونها الحقائق[(٣)] ويتهيأون لتلقى إلهام الله وإبداعه فى عقولهم وانبلاج أنوار اليقين فى صدورهم ، يقول ابن خلدون فى مقدمته : « ونحن ألهمنا الله ذلك إلهاما فإن كنت قد استوفيت مسائله وميزت عن سائر الصنائع أنظاره وأنحاءه فتوفيق من الله وهداية وإن فاتنى شيء فى إحصائه واشتبهت بغيره مسائله فللناظر المحقق إصلاحه .... والله يهدى بنوره من يشاء »[(٤)] .

وحيث كان موضوع التفكر والتدبر كما لمسناه فى هاتين الآيتين هو

(١) جامع البيان ٥٦٧/٨ طبع وتحقيق شاكر (٣) فتح القدير ٣٨/٥ طبع الحلبى
(٢) فى مناهج البحث الاجتماعى – لبيب السعيد ص ١٣١ – ١٣٣ .
(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٦٦ طبع الكتاب اللبنانى ١٩٦٧ م .

كتاب الله للوصول إلى صدق تنزله من قبل الله وتلك قضية عقدية إيمانية فإن ما يهمنا فى المقام الأول هو ما أشارت إليه الآيتان من ضرورة التفكر فيما بين أيدينا من موضوعات – ولو كان ذلك الموضوع كتاب الله الكريم – باعتبار التفكر والتدبر مرحلة منهجية من مراحل البحث العلمى ، على أننا لا نعدم فى القرآن الكريم آية فيها من العموم والشمول والانطباق على موضوعات شتى ثم هى فوق ذلك هادية إلى ضرورة التأمل والاستنباط من المعلومات المتاحة لنا فى أى من هذه الموضوعات المدروسة .

يقول الله تعالى عقب آية سورة النساء السابقة : ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ (النساء ٨٣) وفى ذلك يقول ابن قيم الجوزية : « وقد مدح الله تعالى أهل الاستنباط فى كتابه وأخبر أنهم أهل العلم . ومعلوم أن الاستنباط هو استنباط المعانى والعلل ونسبة بعضها إلى بعض فيعتبر ما يصح منها بصحة مثله ومشبهه ونظيره ويلغى مالا يصح . هذا الذى يعقله الناس من الاستنباط » ، وينقل ابن القيم عن الجوهرى اللغوى قوله : « الاستنباط كالاستخراج ومعلوم أن ذلك قدر زائد على مجرد فهم اللفظ فإن ذلك ليس طريقة الاستنباط ؛ إذ موضوعات الألفاظ لا تنال بالاستنباط وإنما تنال به العلل والمعانى والأشباه والنظائر ومقاصد المتكلم » ثم يقول ابن القيم شارحا : « والله سبحانه ذم من سمع ظاهرا مجردا فأذاعه وأفشاه وحمد من استنبط من أولى العلم حقيقته ومعناه »[1] .

وفوق دلالة الآية كما رأينا على ضرورة إعمال العقل والتفكر والتدبر فإنها تنقل المتأمل إلى مطلب آخر من مطالب البحث العلمى إذا ما استعصت

---

(١) إعلام الموقعين ٢٤٨/١ ، ٢٤٩ ، وكأن ابن القيم يوازن هنا بين امتداح هذه الآية لأهل الاستنباط المعملين لعقولهم فيما بين أيديهم من موضوعات البحث ، وذم الآية الأخرى فى قوله تعالى : ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (الروم ٧) لمن يمسون الأشياء مسًّا رفيقا مكتفين بظاهرها وقشرها دون استبطانها والوصول إلى أعماقها وأسرارها .

على الباحث حقائق الموضوع المدروس أو قصرت به وسائله فى تلمس جوانبها أو لم تسعفه مداركه فى التقاطها ، وهنا لا مناص من الرجوع بالموضوعات والمسائل إلى أهل الاختصاص والخبرة وهؤلاء العلماء - بعد الرسول وأولى الأمر - هم المرجع الذى يجب أن ترد إليه الأمور المشكلة والمسائل المعضلة ليدرسوها أو يستنبطوا لها من خلال علمهم وفكرهم ورشدهم الحل الأنسب والقول الفصل ، كما أنهم المرجع الوثيق للمستوضحين والمتشككين وهم من عناهم الله بأهل الذكر فى قوله تعالى : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (النحل ٤٣ ، الأنبياء ٧) .

ومن فكرة الاختصاص والدقة فى العلم أو الرسوخ فيه بعبارة القرآن الكريم يذكر الله جل شأنه أن شهادة هؤلاء العلماء هى حجة على الجهلاء وهى حرية أن يرجع إليها ويتحاكم عندها ويعتد بها لما أن هؤلاء العلماء أهل لأن يكشفوا وجه تلك الحقائق قال تعالى : ﴿ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾(النساء ١٦٢) ، ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (سبأ ٦) ولهذا عاب الله على أهل الكتاب مجادلتهم ومخاصمتهم فى الذى لم يعلموه مما لم يجدوه فى كتب السماء ولا أتتهم به الأنبياء ولا شاهدوه بعد أن قرر مجادلتهم فيما علموه من ذلك فقال تعالى : ﴿ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِى إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (٦٥ - ٦٦ آل عمران) .

وقد أوجب القرآن الكريم التخصص بين أهل العلم ليقوم المتخصصون بواجبهم نحو من لم يحصل منهم على هذا التخصص ، قال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَفَر مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّين وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ

لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (التوبة ١٢٤) والمعنى كما يقول الشوكانى : « أن الطائفة من هذه الفرقة تخرج إلى الغزو ومن بقى من الفرقة يقفون لطلب العلم ويعلمون الغزاة إذا راجعوا إليهم من الغزو ، أو يذهبون فى طلبه إلى المكان الذى يجدون فيه من يتعلمون منه ليأخذوا عنه الفقه فى الدين وينذروا قومهم وقت رجوعهم إليهم ... وقد جعل الله سبحانه الغرض من هذا هو التفقه فى الدين وإنذار من لم يتفقه فجمع بين المقصدين الصالحين والمطلبين الصحيحين وهما تعلم العلم وتعليمه »[1] .

والظاهر أن المسلمين تأثروا – منذ الصدر الأول – بدعوة القرآن إلى الإفادة من علم المتخصصين فهذا عمر بن الخطاب – مثلا – ينبه إلى التخصصات الدقيقة لبعض علماء الصحابة ويوجه إلى التماس علم هذه التخصصات عند هؤلاء العلماء فهو يقول :«أيها الناس من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أُبىّ بن كعب ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتنى فإن الله جعلنى له خازنا وقاسما »[2] ، وهو معنى حديث الرسول ﷺ عن أنس : « أرحم أمتى بأمتى أبو بكر .... وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل وأفرضهم زيد بن ثابت وأقرؤهم أُبىّ بن كعب .... »[3] .

---

(١) فتح القدير ٤١٦/٢ .

(٢) إعلام الموقعين – ابن قيم الجوزية ٢٥/١ طبع دار الكتب الحديثة تحقيق الوكيل .

(٣) أخرجه الإمام أحمد والترمذى فى المناقب راجع : الفتح الربانى – باب ما جاء فى معاذ بن جبل ٣٥٢/٢٢ سنن الترمذى (الجامع الصحيح) ، مناقب معاذ بن جبل وغيره ٣٣٠/٥ تحقيق عبدالرحمن عثمان طبع بيروت ١٩٨٠ م .

قواعد المنهج القرآنى العلمى وما يتميز به

وعندما نؤكد هنا على منهجية القرآن الكريم لا نقول إن القرآن الكريم فى إعجازه العلمى كتاب متخصص فى مناهج البحث العلمية ؛ لأن القرآن الكريم - تبارك منزله - « لم يأت ليعالج علما واحدا ينفرد بالإفادة منه قبيل واحد من الناس ، وإنما جاء نورا شاملا ورحمة عامة للعالمين ، وخطته فى كل أبواب المعرفة أن يحدد لها الأطر الكلية الواسعة ، ثم يدع للجزئيات والتفاصيل - داخل هذه الأطر - أن تظهر وتنمو وتتشكل وتتشعب وتتعاقب طوراً إثر طور[1] .

وربما كان مثل القرآن الكريم فى ذلك مثل من يدل على إحدى الدور قاصدا لها ، ثم لا يعنيه بعد ذلك أن يجوس خلالها أو يحصى لبناتها أو يفحص مواد بنائها أو يناقش حجة امتلاكها .

وكما لا يجوز - فى مجال علمى كالطب مثلا - أن نجحد ما فى القرآن الكريم من التوجيهات الصحية الأمهات بدعوى أن هذه التوجيهات ليست مفصلة ولا مرتبة - فإنه لا يجوز أيضا - لمجرد وجود هذه التوجيهات العامة - أن نلتمس من القرآن الكريم إجازة الاشتغال بالطب والجراحة والتوليد .

وبالمثل تماما - فى ميدان البحث العلمى - لا يحق لباحث أن يجحد ما فى القرآن الكريم على القطع والثبات من مناهج ذلك البحث أو وصيته بها ، ولكنه يخطىء إذا التمس - عند القرآن الكريم - كيفية تصميم البحوث أو

---

(١) تتسق كليات القرآن الكريم فى المنهج العلمى وخطواته مع إشاراته وأصوله فى احتواء المعارف التى تعرضنا لها من قبل راجع ص٥٣ من هذه الدراسة .

نوعية التجارب أو وضع الاستبيانات أو فرض الفروض وغير ذلك من جزئيات المنهج العلمى ، وغير خاف أن القرآن الكريم لا يمكن أن يتضمن منهج بحث علمى ، أو يوصى بمنهج بحث علمى إلا إذا كان هو نفسه يحب العلم المنظم ويبغض المعرفة المضطربة أو الناقصة أو الخاطئة .

ومما يتحتم التنبيه إليه هنا أنه لا يجوز لباحث أن يلوى النصوص القرآنية ليدنيها بغير حق من أفكار أو نظريات بشرية تكون سائدة ، فقد تتغير هذه أو تلك – طبقا لنسبية العلم والمعرفة التى أشرنا إليها سابقا – فيكون على الذين ارتضوا ربط القرآن الكريم بإحداهما أو بكلتيهما أن يناقضوا أنفسهم ويفكوا الأربطة الباطلة والمتكلفة[1] .

ويتضح التقاء العلم بالقرآن الكريم من حيث وسيلتهما فى تحصيل المعرفة وما يرشدان إليه من قواعد المنهج فيما يلى :

١ – الحق فى القرآن الكريم ما قام عليه الدليل والبرهان القاطع كما هو فى العلم تماما حيث يتضح بجلاء اقتفاء المنهج العلمى خبر القرآن الكريم فيما أرساه من هذه القواعد قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (البقرة ١١١) ، وقال تعالى : ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ، كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ (الأنعام ١٤٨) ، والعلم هنا هو العلم اليقينى الثابت قطعيا بدليل عيبه عليهم إنزالهم الظن منزلة العلم فى قوله : ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾[2] .

---

(١) فى مناهج البحث الاجتماعى فى القرآن الكريم – لبيب السعيد ص ٣٣ – ٣٤ .

(٢) راجع فى هذا المبحث فصل : العلم قرآنى بطريقته – الإسلام فى عصر العلم ص ٣٣ – ٤١ .

٢ – يحاذر العلم أن ينزل غير اليقينى منزلة اليقينى فلا يرفع النظرية إلى مستوى الحقيقة ، كما لا يرفع الفرض والحدس والتخمين إلى مستوى الظن والنظرية ، وهذه طريقة القرآن الكريم التى تتضح فيما سبق من آيات وفى قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (يونس ٣٦) ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ (الجاثية ٢٤) ، وقوله تعالى : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَّا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِن يَتبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِهِمُ الْهُدَى ﴾ (النجم ٢٣) .

٣ – يمنع العلم فى منهجه من التقليد فى النظر أو اتباع الغير دون دليل ، أو اقتناع بدليل ، ومثل هذا يشدد القرآن الكريم النكير على من استمسكوا – بلا عقل أو دليل – بما فعله آباؤهم واعتنقوه ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَاأَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (البقرة ١٧٠) ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيل لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (المائدة ١٠٤) ، فالتقليد الأعمى للغير من غير دليل محرم على أهل النظر فى حكمى القرآن الكريم والعلم .

ويضيف القرآن الكريم إلى التحذير من اتباع الآباء وتقليدهم تحذيره من اتباع الهوى والميل إليه وهذا واضح فى قوله تعالى : ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴾ (طه ١٦) ، وقوله تعالى : ﴿وَلَو اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَٰوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ (المؤمنون ٧١) ، وقوله تعالى : ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَالَهُم مِّن

نَاصِرِينَ ﴾ (الروم ٢٩) ، وقوله تعالى : ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ (ص ٢٦) .

٤ – تقوم المشاهدة العلمية والملاحظة الدقيقة لموضوع الدرس فى المنهج العلمى بعد تدريب وسائل الإدراك الإنسانية كالسمع والبصر والأفئدة والعقول ، وهذا أصل قرآنى يظهر فى آيات كثيرة منها فى البصر والعقل ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (العنكبوت ٢٠) ، ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ (الملك ١٩) ، ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ . أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا . ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا . فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴾ (عبس ٢٤ – ٢٨) ، ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ (الغاشية ١٧) . ومنها فى العقل والقلب ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (محمد ٢٤) .

ومنها فى السمع والقلب والعقل ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (الحج ٤٦) .

ومنها فى السمع والبصر والقلب والعقل ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (الأعراف ١٧٩) ، ﴿ وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل ٧٨) .

ومنها فى وسائل الإدراك مجتمعة تلك الآية الجامعة ﴿ وَلَا تَقْفُ مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ (الإسراء ٣٦) .

٥ - يؤكد أصحاب المنهج العلمى على فكرة استقلال الحق عن الزمان والمكان بمعنى أنه لا تناقض بين الحقائق مهما اختلفت أمكنتها ويسمى هذا بأصل توافق الحقائق ، كما لا تتغير الحقيقة بتغير الزمان فما ثبت أنه حق فى زمن ما سيكون دائما حقا ويسمى هذا بأصل اطراد الحقيقة واستقلالها .

وهذان الأصلان اللذان استمسك العلم بهما هما قرآنيان أكدهما الله وهو أعلم بما خلق ، فتوافق الحقائق وعدم تناقضها ثابت بقوله تعالى : ﴿ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فى خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ . ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ (الملك ٣ - ٤) ، أما اطراد الفطرة أو الحقيقة واستقلالهافهو ثابت بقوله تعالى :﴿ سُنَّةَ اللهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ﴾ (الأحزاب ٦٢) ، ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم ٣٠) ، ﴿ اسْتِكْبَاراً فِى الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّءِ وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً ﴾ (فاطر ٤٣) .

وأخيرا فإن جسور اللقاء بين منهج العلم والمنهج القرآنى لا تقتصر على ما سبق ذكره من قواعد وضوابط وغيرها بل تمتد جسور اللقاء بينهما لتشمل الروح الجامع بينهما حيث لا يفترقان إلا فى سلطان كل منهما على موضوعه وحدوده .

فالروح الجامع بينهما هو التجرد للحق والصدق فيه والاستمساك به والتعاون عليه ، وإذ كان ذلك شعار العلم فهو من الإسلام فى الصميم من غير

شك ، إذ الإسلام كله ليس إلا أمرا بالحق وتجردا له وجهادا فيه ، وما لقيه الحق من الإكبار فى العلم لا يزيد عما لقيه من الإكبار فى القرآن[1] .

والمتأمل فى آيات القرآن الكريم يجد أن كلمة العلم فيه هى الكلمة الفاصلة بين ما هو حق وما هو باطل ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمَٰوَاتِ ائْتُونِى بِكِتَابٍ مِّنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (الأحقاف ٤) ، كما يدرك المتأمل أن العلم على إطلاقه لم يكبر فى دين كما أكبر فى الإسلام ، وأن دنيا لم يلزم أهله العلم كما ألزم الإسلام المسلمين وهو إلزام يشمل كل علم طبيعى وغيره ، وإذن فالعلم بمعناه الحديث مطلوب ومأمور به فى الإسلام ، فتطلب آيات الله فى الكون وتعرف أسرار الخلق ليست شيئا آخر غير العلم الذى يسميه الناس بالعلم الطبيعى ، ومن هنا لا يشك لحظة فى أن العلم الحديث قرآنى كذلك فى موضوعه كما هو قرآنى فى منهجه وروحه[2] .

وإذا كان هناك من فرق بين المنهج القرآنى والعلمى فهو لا يتعلق بذاتهما ولكن بامتداد سلطانيهما ومصدريهما ، فسلطان العلم مقصور على الميادين التجريبية التى قصر العلم الحديث نفسه عليها ، ولكن سلطان المنهج القرآنى يشمل كل ميادين حياة الإنسان العلمى (التجريبى) منها والاجتماعى ، ويستمد حقائقه الكبرى عن مبدأ الكائنات وغاياتها وتفسير طرفى الوجود من ساحة أخرى غير ساحة الكون والواقع ، هى ساحة الغيب التى يستوى فى الوقوف دونها العلماء والجهلاء[3] .

وحيث اتضح لنا على هذا النحو أن المنهج العلمى الذى يدل به من ظنوا أنهم أصحابه ومبتكروه على غيرهم – هو فى كل خطواته وضوابطه

---

(١) الإسلام فى عصر العلم ص ٣٣ .

(٢) الإسلام فى عصر العلم ص ٣٣ .

(٣) السابق نفس الصفحة وانظر الدين – دراز ص ٨٥ – ١٠٠ .

منهج قرآني فإن المنهج القرآني يتميز بما نفتقده عند هؤلاء على نحو أو آخر من ضوابط مهمة وضرورية .

فالقرآن الكريم ينبه المؤمنين إلى ضرورة يقظتهم واستحضارهم لوعيهم ويحذرهم من انفلات هذا الوعي أو الوقوع في شرك انفصام فكري يفسد عليهم نظرهم وتدبرهم ، وهذا واضح في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾ (الأعراف ١٩٨) .

ويرشد القرآن الكريم إلى ضرورة توفير الظروف الملائمة للتفكير السليم وإيجاد المناخ المناسب لمعاينة موضوع البحث وتدبره بعيدا عن غوغائية الجماعات وتشويشها ونجد ذلك واضحا في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا للهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ (سبأ ٤٦) .

ويعرف القرآن الكريم لأصحاب المعرفة أقدارهم وينزل أهل الاختصاص منزلتهم اللائقة بهم فيوجب على المؤمنين احترامهم والرجوع إليهم فيما يعرفونه ويختصون به ، ويحذرهم أن يخبطوا فيما لا علم لهم به ، أو يأنفوا من رد الأمور إلى أصحابها الفاقهين لها ، وهذا واضح في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (الأنبياء ٧) ، وقوله تعالى : ﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلاَءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ واللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران ٦٦) ، ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْرَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُه لاَ تَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (النساء ٨٣) .

ثم هو يحفظ العقل من دراسة ما يبهظه ، ويرحمه مما يؤوده أو يفسده ، فلا يرضى له أن يتطلع إلى علم ما استأثر الله بعلمه أو ما لافائدة للإنسان فيه

فى دينه أو دنياه ، أو يعرضه للتكذيب بما هو حق لم يستطع إدراكه ، ولهذا لم يشأ الله تفصيل الحقيقة العلمية فى كتابه أو التصريح بما سيعرفه العلم بعد أو ما لا يقع تحت حس المخاطبين بالقرآن ، ولو قد حدث ذلك لكان من قبيل خطاب الناس بما لا يعرفون فيضلون ويعرضون عنه ويحسبونه كذبا وافتراء ، وقد كان العرب حين نزل القرآن الكريم يسألون عن أشياء من ذلك لم يتأهلوا لها بعد أو ليس فى مكنتهم إدراك حقيقتها – فضلا عن تعرف أسبابها وعللها – فكان القرآن الكريم يصرفهم عنها ويوجههم إلى الآثار المترتبة عليها أو وجوه الفائدة منها[1] ، فهو يجيب السائلين عن حقيقة الروح بقوله : ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الإسراء ٨٥) ، ويجيب السائلين عن الأهلة بقوله : ﴿هِىَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ (البقرة ١٨٩) ، ولو أنه أجابهم عن حقيقة الروح والأهلة وسبب اختلافها لكان محلا للطعن من جهلة المتعلمين وللتكذيب من الكفرة والملحدين لقلة علوم القوم وقصور مداركهم عن فقه علل الأشياء فى ذلك الوقت .

وحيث ينأى القرآن الكريم بالعقل عن هذه الدائرة يوجهه إلى مجاله الصحيح حيث يستطيع تحصيل المعرفة يقول تعالى : ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة ١٦٤) ، ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِى الْأَلْبَابِ . الذينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران ١٩١ – ١٩٢) .

---

(١) راجع : التوفيق العملى بين الحضارة والإسلام – رضوان شافعى ص ٤٣ طبع المنار ١٩٢٥ م .

فإذا ما حاول العقل تجاوز هذا الضابط أو انتهك التوجيه القرآنى فى هذا الشأن وتعدى مجاله الصحيح من عالم التجربة الحسية أو الظواهر الكونية التى أوردت آيات القرآن الكريم أمهاتها وحاول أن يعرف أصل عالم التجربة دون عون من الوحى والدين وقع هذا العقل فى الخلط والتناقص وشاعت المنازعات والفوضى بين المفكرين والعلماء .

وفى هذا المجال المشروع للعقل أن يبحث فيه ويفكر ثم يدرس ويجرب يلزم القرآن الكريم أتباعه التمييز بين مستويات شتى من المعارف وأن يكونوا على وعى حسن بدرجات يقينها واحتمالها وأن لا يغشوا أنفسهم أو يدعوا غيرهم يغشهم فيعتمدون الظن يقينا مطلقا أو يأخذون النظر كحقيقة ثابتة وإنما عليهم التحرى والتأكد فلا يقبلون من المعرفة أو ينكرون ولا يتابعون أو يدينون ، ولا يعتقدون أو يعارضون إلا ما كان وثيقا راجحا لديهم فضلا عن اليقينى أو القريب من اليقين قال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ .... ﴾ (الحجرات ١٣) ولربما قيل هنا – وهو قول حق – إن الإسلام يبيح الاستناد إلى الظن فى تقرير العبادات والواجبات والأقضية وغيرها وقد أدان القرآن بعض الظن دون الظن كله كما هو واضح من الآية الكريمة التى تأمر باجتناب الكثير منه لأنه إثم أما بعضه الآخر فليس كذلك .

نعم ولكن الموقف بحاجة إلى تأمل وفهم فمع أن موضوع الظن واليقين أو دلالة الظن والقطع هى من علم الأصول فى الصميم فلا يغنينا ذلك عن التنبيه على أن للظن فى العربية درجات ومعانى عديدة وفى لغة القرآن الكريم نجد من بين هذه المعانى اليقين والاعتقاد كما فى قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (البقرة ٤٦) فلقاء الله والرجعة إليه يقين لا وهم ، وإيمان المؤمنين بذلك حقيقة لاشك فيها وإن عبرت الآية عن ذلك بلفظ الظن ، وعليه فإن الظن الذى يحرمه الإسلام ويؤثمه وينهى عنه إنما هو

ذلك الذى لا يتجاوز الشكوك الهشة التى لا رجحان لصوابها ، أما الظن الراجح الاحتمال القريب من اليقين فهو فى الإسلام معرفة معتبرة يجوز الاستناد إليها ويدور عليه الكثير من الأحكام الشرعية ، وإذ يبيح الإسلام الاستناد إلى شىء من ذلك فإنما يفعله لضرورة معرفية تقل معها أو تندر المعرفة اليقينية فى الأمر المدروس حيث لا مناص من دفع الحرج إلا بالاعتماد على هذه الظن الراجح .

وحيث يلزم القرآن الكريم الدارس بالتجرد عن المؤثرات التى تطرأ عليه من خارج نفسه وتصرفه عن موضوعية البحث والإخلاص لها فإنه يلزمه كذلك – حرصا على هذه الموضوعية وتجردا لها – ألا يقع فريسة أهواء نفسه وسخائمها التى تهوى بمعرفته إلى دركات التحيز والبهتان إنه يحصنه ضد ميوله الأنانية التى تميل مع المصالح والمنافع وتتأرجح مع الربح والخسارة أو مع الصداقات والقرابات يقول الله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِياً أَوْ فَقِيراً فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ (النساء ١٣٥) ، ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ لاَ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة – ٨) .

والآيتان وإن كانتا فى معرض الشهادة بالحق والقضاء بالعدل فكلاهما إقرار بعلم وقضاء عن علم يدوران مع الحق حيث دار لا يلوى الشاهد عن الحق أو يعرض عنه ولو كان فى ذلك نفع له أو لأقاربه ، كما لا يقضى القاضى بغير العدل ولو اضطرته لذلك عداوة بينه وبين المحكوم لهم .

ومن هذا التجرد فى الموضوعية لا يميل به عنها نزغ من خارج نفسه أو دفع من داخلها يلزم القرآن الكريم المسلم أن يأخذ الحقيقة كلها ولا يكتفى بجزء منها فاجتزاء الحقيقة أو انتقاصها هو تزييف لها ، ومثل من يفعل ذلك مثل

من حذر القرآن من جريمتهم حين آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعضه والكتاب كل لا يتجزأ قال جل شأنه : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة ٨٥) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ﴾ (النساء ١٥٠ – ١٥١) ، ثم يلزمه مع أخذ الحقيقة كلها التبين والتثبت منها قبل أخذها والتيقن من سدادها وبخاصة حين تساق المعرفة على لسان من يشك فى معرفته أو تأتى من غير مظنة إتيانها منه قال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ (الحجرات ٦) .

وتتمة لهذه الضوابط يلزم القرآن الكريم أصحابه بأداء الحقيقة كاملة والصدق فى إبلاغها دون كذب أو نحوه من تلبيس وكتمان قال تعالى : ﴿ فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (آل عمران ٩٤) وفى الحديث « يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب »[1] ، ولا تدخل حلاوة الإيمان قلب امرىء حتى يترك بعض الحديث خوف الكذب وإن كان صادقا ويترك المراء وإن كان محقا ، وأبعد من هذا ينكر القرآن الكريم على الناس الهرب من تبعة الصدق عن طريق الكتمان دون الكذب ، فالكتمان ضرب من التحيز يضاد الموضوعية والتجرد ، والساكت عن الحق – يقينا – هو كما قيل شيطان أخرس ، والقرآن الكريم يلاحق أمثال هؤلاء ويحذر من أسلوبهم الماكر : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا

---

(١) أخرجه الإمام أحمد عن أبى أمامة ، راجع الفتح الربانى – باب الترهيب من الخيانة والكذب ٢٦٤/١٩ .

يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة ١٤٦)، ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ (آل عمران ١٨٧) فهؤلاء لم يكذبوا ولكنهم يكتمون الحق وهم به عالمون ، بل هم أعرف به منهم بأبنائهم ، والعبرة من وراء تحريم كتمان العلم واضحة جلية إنه علم كالجهالة الجاهلة فى حياة الناس وليس هذا هو عهد الله وميثاقه مع أهل العلم واليقين ، لقد عاهدهم على البيان والتبليغ الذى يحرك الناس إلى العمل الصالح والسلوك النافع الذى تثرى به الحياة ويسعد به أصحابها »[1].

وأشنع من كتمان المعرفة الحقة تلبيسها بالباطل ، والتلبيس أخطر من الكذب الصراح وأخطر من الكتمان كليهما لأنه مزج بين حق وباطل من أجل ترويج هذا الباطل وإشاعته فى الناس ومن أجل هذا كان النهى عنه مقدما على النهى عن الكتمان فى قوله تعالى : ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران ٧١) فالتلبيس مراوغة هدفها استعمال الحق مطية للباطل وأهل التلبيس يعلمون أن باطلهم المحض لا سلطان له على قلوب الناس وعقولهم ومن اليسير كشف الباطل المحض ولهذا يجد المبطلون مخرجهم فى لف باطلهم برقائق من الحق تستر عواره ودمامته ويروج بها فى دنيا الناس .

ومن هنا وجدنا القرآن الكريم يحرس أتباعه ويسلحهم فى طريق درسهم ومعارفهم بأهم ما يتميز به المنهج القرآنى وهو التسلح بتقوى الله والإخلاص له حتى يكون المتقى أهلا لانبلاج نور الحق فى قلبه وفتوح الله عليه بعلم ما لم يكن قد علمه من قبل وهذا واضح فى قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُم اللهُ

---

(١) هذه سبيلى : ضوابط المعرفة فى القرآن – أحمد عبدالرحمن ص ١٣٦ العدد الرابع ١٤٠٢ هـ طبع جامعة الإمام .

وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة ٢٨٢) ، ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا الله يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (الأنفال ٢٩) .

الفصل الثالث

الدراسة التطبيقية (الإعجاز فى آفاق الكون)

الفصل الثالث

الدراسة التطبيقية (الإعجاز فى آفاق الكون)

تمهيد : حول المعجزة ووجوه الإعجاز القرآنى

تعريف المعجزة وتسميتها :

المعجزة علامة إلهية ودليل يقينى من قبل الله – جل وعلا – يجريه على يدى رسوله ﷺ للدلالة على رسالته ، والحال أن تلك العلامة وذلك الدليل إنما هما من خصائص ربوبية الرب ومما يعجز الخلق عن مثله ، فيعلم من ذلك يقينا أن هذا الأمر ما جرى على يدى الرسول أو لسانه إلا دليلا على صدق رسالته وتثبيتا لها .

والكلمة فى أصلها اللغوى اسم فاعل من العجز الذى يقابل القدرة ، والهاء فيها للمبالغة ، وفى القاموس هى ما أعجز به الخصم عند التحدى ، وسميت بذلك لعجزه عن معارضتها ، أما فى اصطلاح العلماء فهى عند بعضهم أمر خارق للعادة مقرون بالتحدى مع عدم المعارضة ، وعند آخرين ما خرق العادة من قول أو فعل إذا وافق دعوى الرسالة وقارنها وطابقها على جهة التحدى ابتداء بحيث لا يقدر أحد عليها ولا على مثلها أو ما يقاربها ، وعلى هذا فالمعجزة بلغة العصر أمر يجريه الله على يد النبى ﷺ فائق لطاقات البشر وقدراتهم وخارق لقوانين الطبيعة وخواص المادة يتحدى النبى بها قومه فلا يقدر أحد على معارضته .

وقد أطلق لفظ المعجزة على دليل النبى وآيته على رسالته من قبل علماء الكلام والنظار ، وتسمى عند غيرهم دلائل النبوة وأعلامها ، وقد جاء اسمها فى القرآن الكريم « آية وبينة وبرهانا » قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ (الرعد ٧ ، ٢٧) ، ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾ (الأنبياء ٥) ، ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى والْفُرْقَانِ ﴾ (البقرة ٨٥) ، ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ ﴾ (القصص ٣٢) .

ومن الملاحظ أنه كما أطلقت الآية هنا على دليل النبى على نبوته (المعجزة) أطلقت كذلك فى كثير من آيات القرآن الكريم على الأفعال الإلهية البالغة نهاية الدقة والحكمة والإتقان والتوازن ، والدالة على وجود الله وعظيم قدرته ، وهو ما نجده فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾(الروم ٢٢) ، ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (يوسف ١٠٥) ، ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الْآفَاقِ وَ فِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت ٥٣) .

وجوه الإعجاز القرآنى

لقد أصبح البحث فى إعجاز القرآن الكريم ذا أهمية بالغة – وبخاصة فى هذا العصر ، وذلك أن المسلمين متفقون على أن القرآن الكريم معجزة الرسول الكبرى ، بيد أنه يخفى على كثير منهم مكمن هذا الإعجاز ووجوهه ، ولقد كتب العلماء قديما فى الإعجاز ، وكثرت – فى العصر الحديث – الكتابة فى أوجه الإعجاز بخاصة العلمى (التجريبى) وظهر فى بعضها خلط ونقص ، بحيث أصبح من الضرورى للمسلم – فضلا عن المهتم بهذا اللون من الفكر

الإسلامى والقرآنى – ضرورة تعرف هذا الوجه من الإعجاز القرآنى وما المراد به وما ضوابط البحث فيه وما مجالاته التى يظهر فيها والتى تيسر للبشرية الوقوف عليها اهتداء بما أشير إليه منها فى القرآن الكريم وما هدى الله علماءها فى جهودهم الدائبة نحو الوصول إليها .

وإذا صرفنا النظر سريعا عن أنواع المعجزات من مادية ومعنوية ومدى اتفاق المعجزة مع إمكانات المتحدين بها وزمن صلاحية المعجزة لمن ووجهوا بها ... لننتقل إلى معجزة الإسلام الخالدة وطبيعتها الخاصة التى جعلت منها معجزة ودينا فى الوقت نفسه ضرورة احتواء هذه المعجزة على أصول هداية البشرية فى كل ما يهمها من شئون دينها ودنياها ، وضرورة أنها معجزة الدين الخاتم الذى جعله الله الدين المرضى لأهل الأرض وما يدينون الله به حتى آخر الزمان – وجدنا أنفسنا أمام أمر مهم وهو ضرورة الوقوف على وجوه الإعجاز القرآنى التى ندخل منها مباشرة إلى وجه الإعجاز التجريبى (العلمى) وطبيعته الخاصة التى خلعت عليه من ظروف العصر وتطوراته التى رفعت من قيمة العلم المادى والمنهج التجريبى فى تحصيل معارفه وجعلت من كل منهما لغة عالمية لا تستجيب الآذان لغيرها ولا تنصاع الأفئدة والعقول إلا لها .

وبادىء ذى بدء نقول : إن القرآن الكريم هو نفسه برهان صدق أنه كلام الله تعالى ، فقد نزل على وجه يعجز البشر عن الإتيان بمثله أبدا ، ومعنى أنه معجز أن قد تعذر على المتقدمين فى الفصاحة فعل مثله أو قوله فى القدر الذى اختص به ، وهذا قول لكثير من العلماء يكاد يذهب بتقرير الإعجاز فيه وقصره على أسلوبه البيانى الفائق ، أو – كما نقول نحن الآن – على شكل القرآن ونظمه اللغوى وبنائه الفنى دون محتواه العلمى ومضمونه الهدائى الذى نيط به هداية البشرية فى جميع شئونها .

أما معنى الإعجاز فى فهمنا فهو أن يتعذر على البشر – فصحاء وغيرهم ، علماء وعامة – الإتيان بمثله سواء فى أسلوبه البيانى أو أخباره الغيبية

أو أى من وجوه إعجازه أو هدايته الأخرى لسموه على طاقتهم وفقدانهم العلم المطلق بسائر مضموناته وقصورهم عن إدراك سائر وجوه هدايته قصورا أبديا . ومن هنا كان القرآن الكريم آية الآيات على صدق نبوة محمد ﷺ ومعجزة المعجزات الشاهدة على خلود دينه وعموميته . قال تعالى : ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ . أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (العنكبوت ٥٠ - ٥١) .

وحيث كان إعجاز القرآن الكريم كامنا فيه ومنبعثا من ذاته على ما هو المعتمد لدى العلماء والمحققين وليس لسبب خارج عنه يرجع إلى العاجزين المحجوجين به[1] ، فقد عدد العلماء قديما وحديثا وجوها متنوعة للإعجاز القرآنى ، وتفاوتت هذه الوجوه عندهم وتداخلت ، وتوزعت بين شكله ومضمونه وما استطاعوا فى مجموعهم أن يحيطوا علما بأسرار إعجازه ووجوهه ، وكلما تقدمت البشرية وارتقت فى الحكمة والمعرفة وقفت على أنواع جديدة من إعجاز القرآن وهداياته التى لا تنفد واستشرفت آفاقا من العلوم والمعارف المكنونة التى ضمنها الله كتابه الكريم[2] ، وصدق الله العظيم القائل فى كتابه - وقوله الحق - ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ (الكهف ١٠٩) ، ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (لقمان ٢٧) .

---

(١) راجع رأى النظام من المعتزلة ومناقشة العلماء له فى : البرهان فى علوم القرآن - الزركشى ٩٤/٢ ومراجعه طبع دار المعرفة بلبنان ١٩٧٢ م بتحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم .

(٢) راجع وجوه الإعجاز القرآنى فى : إعجاز القرآن - الباقلانى ، ثلاث رسائل فى الإعجاز - للخطابى والرمانى والجرجانى ، الشفاء - القاضى عياض ، البرهان - الزركشى ، الإتقان - السيوطى ، مناهل العرفان - الزرقانى ، الجامع لأحكام القرآن - القرطبى جـ ١ ، تفسير القرآن الحكيم - رشيد رضا جـ ١٢ ، روح المعانى - الألوسى جـ ١ ، بينات المعجزة الخالدة - حسن عتر .

قال ابن سراقة : اختلف أهل العلم فى وجه إعجاز القرآن فذكروا فى ذلك وجوها كثيرة كلها حكمة وصوابا وما بلغوا فى وجوه إعجازه جزءاً واحدا من عشر معشاره .... »[1] .

وفضلا عما انتهت إليه البشرية وأدركته – على طول تجاربها – من وجوه الإعجاز القرآنى التى ترجع إلى ميادين الإخبار بالغيب على أنواعه ، ومجالات الحياة المختلفة التى تنتظم شئون الإنسان الدينية والدنيوية كالعقيدة والشريعة والأخلاق والاجتماع والسياسة والاقتصاد وغير ذلك مما يفى بحاجات البشرية ويكفيها وفاء وكفاية لا يعوزانها إلى غيره – فإن أهم ما تنبهت إليه البشرية من وجوه الإعجاز حديثا هو ذلك الوجه الذى أسهم فى إظهاره التطور الحديث فى العلوم والمعارف المادية وهو الإعجاز العلمى التجريبى الذى أشير إلى كثير من حقائقه وأصوله ودقائق منهجه التفصيلية فى القرآن الكريم ، وهو موضوع درسنا الذى نعرض لضوابط البحث فيه ، ونقف أمام بعض الحقائق فيه فى مجالى الآفاق والأنفس على نحو ما ذكر الله فى كتابه ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت ٥٣) ، ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (النمل ٩٣) .

ويكفينا هنا القول : بأن القرآن الكريم لم يعجز الناس من وجه واحد معين ، وإنما أعجزهم من وجوه عدة ومن نواح شتى تجمعت وتساندت فأعجزت الناس عن أن يعارضوه ، ولم تصل العقول حتى الآن إلى حصر نواحى إعجازه ، وكلما ازداد التدبر فى آياته وأنعم الناس النظر فى الآفاق وفى أنفسهم ظهر لهم وجه من وجوه إعجازه وتبين لهم أنه الحق ، وأظهر ما وصلت إليه العقول من نواحى إعجازه : بلاغة عباراته واتساق أحكامه

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن – السيوطى ١٢١/٢ طبع الحلبى بمصر .

ومبادئه وآياته ونظرياته وإخباره بالغيب عن ماض انطمست معالمه ومستقبل لا يعلمه أحد ، ودلالته على سنن كونية وحقائق يكشف العلم براهينها وأدلتها ... هذه النواحى وغيرها مما لم تصل إليه عقول الناس تضافرت فأعجزت الناس عن أن يعارضوه مع تحديهم بعبارات واخزة ، ومع توافر دواعيهم إلى معارضته ومع انتفاء ما يمنعهم منها[1] .

الإعجاز التجريبى والمراد به :

إذا كان من المتفق عليه أن القرآن الكريم لم يعجز البشرية من وجه واحد معين – كما قدمنا – فمن التقصير فى حق العقيدة الإسلامية والقرآن الكريم أن تظل بحوث الإعجاز فيه غافلة – أو متغافلة – عن هذا الوجه الذى تفيد منه عامة البشرية ، وهو الوجه العلمى الذى يستثمر منجزات العصر الحديث وعلومه فيفيد منهما – كما أفاد السابقون من منجزات عصورهم وعلومها – فى اكتشاف الحقائق اليقينية التى جاء بها محمد ﷺ الرسول الأمىّ فى زمن لم يكن قد عرف هذه الحقائق والعلوم بعد ولا استشرف آفاقا منها ، وكيف تسنى له أن يأتى بأنواع الهدايات المتعلقة بمنافع الدنيا والآخرة والتى اشتمل القرآن الكريم على أتم وجوهها التى تقوم بحاجة الإنسانية قياما عاما باقيا ببقاء رسالة القرآن الكريم على الأرض ، ثم ترك بعد ذلك الباب مفتوحا لأهل الذكر من المشتغلين بالعلوم ليبينوا للناس جزئياتها بقدر ما أوتوا منها فى أزمانهم ليبلغوا بالإنسان كماله الجسدى والروحى .

فالإعجاز العلمى التجريبى – على ذلك – هو محاولة للإجابة على ذلك السؤال القديم والجديد معا : كيف أمكن لمحمد – ﷺ – أن يعرض لحقائق علمية وكونية لم تتيسر معرفتها لأهل عصره ، وأتى فى القرآن الكريم بما لا تزيده السنون وتقدم العلوم إلا تصديقا وداعيا إلى اليقين ؟ وهل يمكن

---

(١) راجع : اتجاهات التجديد فى تفسير القرآن الكريم فى مصر – محمد شريف ٥٤٦ ومراجعه ، دار التراث ١٩٨٢ م .

أن يكون ذلك من صنع بشر تلقفه منه محمد فوعاه قلبه ثم أخرجه على غير صورته الأولى وهو الأمّى الذى لا يقرأ ولا يكتب ؟ أم يمكن أن يكون من صنعه هو نفسه ، ولم يكن فى حد ذاته – بصرف النظر عن الوحى وثبوته – إلا رجلا عربيا محدود المعرفة التجريبية ، وأقصى ما يمكن أن يقال فى معرفته أنه بلغ الغاية فى علوم عصره التى كانت بطبيعة الحال بدائية ومحدودة ؟ .

هذه الناحية هى التى ينبغى أن يشمر المسلمون سواعدهم ويقدحوا زناد فكرهم للكشف عنها وإظهارها للناس فى هذا العصر الحديث ، ولن يستطيعوا ذلك على وجهه حتى يطلبوا العلوم كلها ليستعينوا بكل علم على تفهم ما اتصل به من آيات القرآن الكريم ، ويستعينوا بها جميعا على استظهار أسرار آيات القرآن التى اتصلت بهاتيك العلوم ، ولا غرابة فى أن يتصل القرآن الكريم بالعلوم جميعا فما العلوم إلا نتاج تطلب الإنسانية أسرار الفطرة ، والقرآن الكريم ما هو إلا كتاب الله فاطر الفطرة ، فلا غرو أن يتطابق القرآن الكريم والفطرة وتتجاوب كلماتها وكلماته ، وإن كانت كلماتها وقائع وسننا وكلماته عبارات وإشارات تتضح وتنبهم طبق ما تقتضيه حكمة الله فى مخاطبة خلقه ليأخذ منها كل عصر على قدر ما أوتى أهله من العلم والفهم .

هذا التدرج فى إدراك تمام التطابق بين القرآن الكريم والفطرة أمر لا مفر منه ولا مندوحة عنه فى الواقع ، ثم هو مطابق لحكمة الله سبحانه فى جعله الإسلام آخر الأديان وجعله القرآن معجزة الدهر : أى معجزة خالدة متجددة يتبين للناس منها على مر الدهور وجه لم يكن تبين وناحية لم يكن أحد يعرفها أو يحلم بها من قبل ، فيكون هذا التجدد فى الإعجاز العلمى هو تجديد للرسالة الإسلامية ، وهو تحدٍّ من جديد للعالم والعلماء من وراء قرون عدة ، كأنما رسول الإسلام قائم فى كل عصر يدعو الناس إلى دين الله ويريهم دليلا على صدقه آية جديدة من آيات تطابق ما بين الفطرة والقرآن الكريم .

وعلى ما قررناه هنا فإن هذا النوع من الإعجاز يعجز الإلحاد أن يجد فيه موضعا للتشكيك إلا أن يتبرأ أصحابه من العقل ، فإن الحقيقة العلمية التى لم تعرفها الإنسانية إلا فى القرون الأخيرة مثلا والتى ذكرها القرآن الكريم من وراء أربعة عشر قرنا – لابد أن تقوم عند كل ذى عقل دليلا محساً على أن خالق هذه الحقيقة هو منزل القرآن الكريم .

ونحن لا ننكر هنا أن الشراح والمفسرين للقرآن الكريم قد يقحمون بعض النظريات على النص وهم بصدد اكتشاف هذه الحقائق فى القرآن الكريم بحيث يبدو من صنيعهم مثل مابدا من صنيع القدماء فى هذا المجال من أخطاء تسىء إلى تاريخ التفسير ، ولكن الخطأ فى التطبيق عند الشروع فى بيان هذا الوجه العلمى من الإعجاز لا يجعلنا نغض النظر عن النقطة المهمة وهى أن كثيرا من النشاط العلمى قد استطاع بفضل كشوفه للحقائق العلمية المبثوثة أصولها فى القرآن الكريم أن يشحذ الإيمان ويدعم الوجدان الدينى لدى المؤمنين .

ومثل هذا الخطأ – حتى على افتراض حدوثه – لا يعرض النص القرآنى لهزات عنيفة أو غيرها مما يخشاه الغيورون على القرآن الكريم حيث لا يمكن لقائل أن يزعم – حينذاك – إن الآية قد أخطأت ، إنما قصارى ما يمكن قوله : إن المفسر قد أخطأ فى تفسير الآية ، ولا غضاضة فى أخطاء المفسرين إذ لم يشترط أحد من ذوى الاختصاص ضرورة إصابة المفسر فى تفسيره ، ولا هو مفترض فيه العصمة من هذا الخطأ ؛ لأن مثل هذا الشرط يستحيل تحققه فى غير المعصوم ﷺ ، وإذا ما افترضت ضرورة هذا الشرط فستكون النتيجة تحريم تفسير القرآن الكريم على كل إنسان بعد عهد النبى ﷺ يستوى فى ذلك المفسر العلمى وغيره[1] .

---

(١) اتجاهات التجديد فى تفسير القرآن الكريم ٦٨٤ .

وإذا ما أشير هنا إلى بعض الأخطار التى يمكن أن تنجم عن ربط النص القرآنى بمعنى علمى حديث قد يعرضه لسوء الفهم فأكثر من ذلك خطرا أن نقف بفهمه عند أفهام سابقة قد لا نلزم بها ، إن الجمود فى فهم النص الدينى فى الحقيقة ورفض النظر العلمى استنادا إليه هو انحراف لا يقل عن الانحراف بالنص عند تفسيره فى ضوء هذا النظر العلمى ، فإذا كان رفض النظر العلمى أو الحقيقة العلمية فى تفسير النص يمثل حرصا واجبا وخشية ضرورية يحتمها حماية النص الدينى فإن ربط هذا الرفض بالنص الدينى يشكل حرجا بالغا وخطورة فادحة إذا ما ثبت صدق هذا النظر أو تلك الحقيقة العلمية ، وإذا أخطأ من يقحم القرآن الكريم فى تأييد حقيقة علمية فمن الإنصاف أن نقرر أن مثله فى الخطأ من يقحم القرآن فى بطلانها أو تحريمها[1] .

وأخيرا فإن جلاء هذا الوجه من إعجاز القرآن الكريم يؤكد حاجة الإنسانية إلى الدين الإسلامى والتبصرة به وبكتابه ، ويعتبر من عدة المسلم فى الدعوة إلى الله وإثبات صلاحية القرآن الكريم للحاضر والمستقبل ، وإسقاط دعاوى المغرضين المناوئين للإسلام ، بل إن إظهار إعجاز القرآن الكريم من هذه الناحية يعد الطريق العصرى الأمثل فى تبليغ الدعوة الإسلامية اليوم لغير العرب ، وهو الوسيلة الكافية لإقناعهم بالقرآن الكريم وهدى دينه ولاسيما أن حديث العلم هو القول الفصل الذى لا يستطيع أى مكابر أن يجادل معه أو يشك فيه ، وإن اليوم الذى ينشر فيه على العالم بلغاته المختلفة ما قد سبق القرآن الكريم إلى القول به وأثبته التقدم العلمى فى مختلف العلوم لهو اليوم الذى نكون فيه قد أدينا الرسالة وبلغنا الدعوة ... وأظهرنا معجزة القرآن الكريم لغير العرب وقطعنا الحجة عليهم بتحديه لهم ولأهل العلم منهم خاصة أن

---

(١) وقد أخطأ هذا الخطأ جهلاء الدين والعلم اللذين حرموا القول بدوران الأرض وهو أثبت من وجودهم على ظهرها ، وأخطأ مثلهم من حرموا القول بجراثيم الوباء وهى – فيما تبين بعد ذلك – إحدى حقائق العيان . راجع : الفلسفة القرآنية – العقاد ١٧٥ طبع دار الإسلام بالقاهرة ١٩٧٣ م ، الإنسان فى القرآن الكريم – العقاد ١٧٦ طبع دار الهلال بالقاهرة دون تاريخ .

يثبتوا عدم صحة ما جاء به من حقائق[1] .

ونشرع الآن فيما نحن بصدده من الدراسة التطبيقية التى تبرز وجه إعجاز القرآن العلمى (التجريبى) فنعرض أولا لجوانب الآفاق الكونية فى السموات والأرضين وما يكتنفهما من شموس ونجوم وكواكب وأقمار ، ورياح وسحب وأمطار ورعود وبروق وغيرها ، ثم نعرض لبعض الظواهر ، الأرضية كالجبال والمياه فى الأنهار والبحار ووجوه الحياة وكوائنها فى البر والبحر والجو والأصل المائى لهذه الكوائن والزوجية فى المخلوقات ...

وأخيرا نتناول الأنفس الأنسانية ومظاهر الإعجاز فى خلق الإنسان وتناسله ، وتميزه فى الخلق والاستواء على سائر الفصائل الحيوانية ، وتسخير الله سائر المخلوقات له حفاظا على قوامه وهيكله ورعاية لسلامة نفسه وصحة بدنه كيما يفرغ لأداء رسالته الحقة فى هذه الأرض وعمارته لها على النحو الذى عناه الله باستخلافه فيها .

---

(١) اتجاهات التجديد فى تفسير القرآن الكريم ٦٩٩ - ٧٠٠ .

المبحث الأول
السمــوات و الأرض

أولا : زمان خلقهما

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ ائِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ . ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَللأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِى كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (سورة فصلت ٩ - ١٢) .

فى الوقت الذى نجد فيه الغربيين يكفرون بدينهم وبكتابه المقدس فى زعمهم ؛ لما رأوا من أنه لا يتفق مع ما وصل إليه العلم واكتشفه من حقائق كونية وبخاصة ما يتعلق منها بخلق السماوات والأرض - فإن الآيات الكونية فى القرآن الكريم ليس فيها شيء مما أضل هؤلاء عن دينهم وحاولوا عبثا التمويه على غيرهم بالتوفيق بين ما فى الكون من حقائق وما جاء فى كتبهم من تحريفات أجدادهم الأول .

بل على العكس من ذلك نجد فى القرآن الكريم إشارات ولمحات معجزة عن البعد الزمنى فى الكون تثير الدهشة والتساؤل ، ولو تيسر لجمعها وتنسيقها وتحليلها من لهم اهتمامات رياضية وطبيعية بأمداء الكون ومكوناته ووازنوها بالنسبية الحديثة التى أدخلت البعد الزمنى كبعد جديد ينضاف إلى الطاقة والمادة فى دراسة الكتلة الكونية - لأرونا فى ذلك عجبا وأدركنا يقينا أن هذه

الإحاطة الرياضية الشاملة بأبعاد الكون وعدم التقيد بمقاييس الأرض ونسبياتها المحدودة سيما فى زمن نزول القرآن الكريم – حيث علوم الطبيعة والرياضة ما زالت تحبو بعد لم تتجاوز مرحلة طفولتها – وهذه النظرة الكلية التى تطل على الكون ولا تندمج فيه – إنما هى جميعا من لدن العليم الخبير الذى أحاط بكل شىء علماً[1] .

وصحيح أننا نجد فى القرآن الكريم أن خلق السماوات والأرض وما بينهما قد تم فى ستة أيام كما تصرح به الآيات الكثيرة والتى من بينها آيات سورة « فصلت » ، والتعبير القرآنى فى هذه الآيات قد يلبس على القارىء العادى فيقع فيما وقع فيه الغربيون من ضلال حين ظنوا أن الأيام فى آيات القرآن الكريم المتعرضة لخلق السماوات والأرض كأيامنا نحن التى تقوم على تعاقب الليل والنهار واختلافهما ، وهو منزلق تؤدى إليه أفكار بيئية خاطئة وسائدة أو نقص فى العلم بطبيعة الأيام وأنواعها أو جهل باللغة العربية التى نزل بها القرآن الكريم .

فاليوم عند الناس المساوى لدورة الأرض حول نفسها مرة واحدة ليس إلا أحد معانيه فى اللغة العربية وهو اليوم الذى تقوم عليه حسابات البشر من أسابيع وشهور وسنين وأقسامها ومضاعفاتها ، ويعول عليه فى تقدير أعمار الأفراد والأمم وتحدد به أوقات العبادات ومعاملات العباد وغيرها .

ومن معانى لفظ اليوم ما يعرف بأيام العرب فى حروبها والتى كان الواحد منها يطول كثيرا أو قليلا عن زمنه الذى عرف به لدى الناس كيوم « فيف الريح » الذى كان بين بنى عامر وبنى الحرث بن كعب واقتتلوا فيه اقتتالا شديدا ظل ثلاثة أيام متصلة ، ويوم الفجار الذى كان بين كنانة ومعها قريش ، وقيس عيلان ومعها هوازن وتطاولت الحرب بينهم أياما فكانت لقيس

(١) مع القرآن فى عالمه الرحيب – عماد الدين خليل ص ٣٧ دار العلم ببيروت دون تاريخ .

على كنانة وحضر ﷺ فى أحد أيامهم فانقلبت لقريش وكنانة على قيس عيلان وهوازن[١] .

ومثل هذا قولنا عن تقلب أحوال الناس : الدهر يومان يوم لك ويوم عليك فليس المقصود به يوما مكونا من أربع وعشرين ساعة كما هو واضح ، بل المقصود زمن طويل من عمر الإنسان محسوب له وآخر محسوب عليه ، ويعرف العلماء وسكان الأرض فى القطبين الشمالى والجنوبى معنى آخر لليوم يساوى ستة أشهر نهارا وستة أشهر ليلا ، ويسمى هذا اليوم باليوم القطبى .

وكما جاء لفظ اليوم فى القرآن الكريم مرادا به اليوم العادى كيوم الجمعة ويوم السبت[٢] وبمعنى يوم العرب كأيام بدر وأحد وحنين[٣] ، فقد أطلق كذلك على الحقبة من الزمن يتجاوز طولها إدراكات البشر وتصوراتهم القاصرة .

فهل يمكن أن نقول على هدى من حقائق اللغة العربية والقرآن الكريم ذاته أن الأيام الستة التى ذكر الله سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض فيها ليست كالأيام عند الناس ، وإنما هى أحقاب ستة فى أطوار متعاقبة فصلتها آيات سورة فصلت سابقة الذكر ؟ وهل هذا شىء آخر غير ما قاله العلم اليوم وانتهى إليه علماء الفلك من ناحية و(الجيولوجيون) علماء طبقات الأرض والجغرافيون من ناحية أخرى ؟

---

(١) راجع : الفتح الربانى فى ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل - أحمد البنا ١٩٦/٢٠ .

(٢) ﴿ يايها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ﴾ (الجمعة ٩) ، ﴿ ... إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ... ﴾ (الأعراف ١٦٣) .

(٣) ﴿ إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ﴾ (الأنفال ٤١) ، ﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين ﴾ (آل عمران ١٦٦) ، ﴿ لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ﴾ (التوبة ٢٥) .

وهل يحق لنا أن نتصور الآن بحساب المطلقات القرآنية – لا بحسابنا الأرضى – الأمداء الزمانية لهذه الأيام الست التى كون فيها الله سبحانه السماوات والأرض وأعد كرتنا الأرضية لاستقبال الحياة وإنمائها وتطويرها على يد الإنسان خليفة الله فى الأرض وسيد مخلوقاتها !؟، ثم كيف أتم الله هذا البناء والإعداد المعجزين القائمين على قوانين وسنن ونواميس هى فى غاية الدقة والإتقان والضبط كقوانين الجاذبية وتصريف الرياح وحركة الليل والنهار وإنبات النبات من قلب التربة وتوازن نسب مكونات الغلاف الغازى وخلق الأنعام وإرساء الجبال وتكثيف الغاز والدخان إلى كتلة صلدة صالحة للحركة والبناء وتزيين السماء الدنيا بالمصابيح الزرقاء وتفجير الحياة فى الطين اللازب إلى غير ذلك من القوانين والسنن[1] .

فخلق الأرض فى يومين المذكور فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ .... ﴾إشارة إلى طورى انفصالها عن السماء ثم انطفائها وتكثيفها وتجمد قشرتها وسطحها بالبرودة بعد التهابها حال الاتصال ، ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ (الأنبياء ٣٠) ، ويشير قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ إلى طورين آخرين **أولهما** خلق الجبال الرواسى بنوعيها النارى منها والرسوبى الذى يستتبعه تكون الأنهار ، وهو طور طويل المدى أو يوم الله أعلم بطوله ، **وثانيهما** طور إعداد الأرض للحياة وتقدير الأقوات فيها ، وهذان الطوران مع سابقيهما أربعة يتداخل آخر كل منهما فى أول ما يليه ويوصل إليه .

وهكذا لم تهيأ الأرض للعمران واستقبال الحياة إلا بعد أربعة عصور جيولوجية أو أربعة أيام بتقدير الله ، وهذا عين ما انتهى إليه الجغرافيون من أن تكون الأرض وإعدادها للحياة قد تم فى مئات الآلاف من السنين ، ولا يمكن

---

(١) راجع : مع القرآن فى عالمه الرحيب – عماد الدين خليل ص ٤٢ .

أن يكون هذا إلا بالقول بنسبية الزمن واختلاف وحداته من كوكب إلى آخر .

فالآيات البينات فى القرآن الكريم تدل على أن فوحدات الزمن التى يستخدمها البشر ترتبط بالأرض ودورانها حول محورها وحول الشمس ، فإذا غادر أحدنا الأرض إلى جرم أو كوكب سماوى آخر فوحدت الزمن لاشك سوف تختلف تبعا لاختلاف سرعة هذا الجرم أو الكوكب فى دورانه حول محوره وحول الشمس عن سرعة الأرض فى دورانها ، وإذ كانت السنة الشمسية على الأرض تحسب بمقدار الزمن الذى تقطع فيه الأرض دورة كاملة حول الشمس فى ٣٦٥ ثلاثمائة وخمسة وستين يوما أرضيا - فإن السنة الشمسية على كوكب عطارد - مثلا - القريب من الشمس تحسب بمقدار الزمن الذى يقطع فيه دورته حول الشمس فى ثمانية وثمانين يوما عطارديا ، فإذا ما تجاوز الأمر هذه الكواكب ومثيلاتها إلى ما قبل خلقها - ضرورة أنها لم تكن قد خلقت بعد - فإن وحدة الزمن المعبر عنها باليوم فى آيات الخلق للسموات والأرض - لابد آخذة مدلولا آخر غير مدلولها وهى مرتبطة بهذه الكواكب والسيارات بعد خلقها ودورانها فى الفضاء الكونى .

« فاليوم إما أربع وعشرون ساعة بدوران الأرض حول نفسها فى اليوم والليلة وإما أن يكون أكثر من ذلك حتى يصل إلى ثلاثمائة مليون سنة وأكثر من ذلك وأقل ، وهذه الثلاثمائة مليون سنة لدوران المجرة التى منها شمسنا على نفسها ، فإذا سمعنا الله يقول : ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ - أو يقول : ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فهذا فتح باب لمعرفة دوران الكواكب وأيامها وسنيها ، وبه نعرف الأيام التى خلقت فيها السماوات والأرض ، وهذا كله لاتساع العلوم والمعارف ، فليست الأيام قاصرة على ألف ولا على خمسين ألف وثلاثمائة مليون سنة بل

تكون أكثر وأقل باختلاف الشموس والمجرات والسدم »[1] .

وعلى هذا فستة الايام تعبير من جانب الله عز وجل عن الزمن وهو تعالى وحده العالم بمقدار اليوم الواحد منها ، ومن الوجهة العملية التجريبية فإن خلق الكون يفترض المرور بمراحل وأطوار مختلفة تشير الدلائل الكونية نفسها إلى أنها أزمان عظيمة جدا تتناسب مع عظمة هذا الكون وإن عبر عنها الله تعالى بما نعرف نحن من وحدات الزمن التى لا نعرف غيرها[2] .

وهكذا نرى أن الآيات القرآنية تؤيد العلم الحديث بأن السماوات والأرض وما بينهما من سائر أجرام السماء الدنيا من نجوم وكواكب وأقمار وغازات وطاقات تعلو على الأرض وتقابلها ، ثم ما يلى هذه من سموات وأرضين أخر يتألف من سائرها هذا الكون ما يرى منه وما لا يرى - كل هذا لم يتكون فى ستة أيام من أيامنا العادية ، بل تكونت فى أعداد كبيرة من السنين ربما يقاس الواحد منها بعصر أو حقبة جيولوجية .

ومن هذه الأيام الستة يومان خص بهما تكوين السماوات السبع فى طورين آخرين كما يعلمه الله ، وهما اليومان اللذان تكونت فيهما كذلك السماء الدنيا من السدم أو الدخان كما هى عبارة القرآن الكريم ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾ .

---

(١) الجواهر فى تفسير القرآن الكريم طنطاوى جوهرى ١١٤/١٩ طبع الحلبى ١٣٥٠هـ .

(٢) لا يتعارض هذا مع أمر الله الكونى إذا أراد شيئا بل يتوافق معه من حيث إن الله تعالى جعل لكل شىء قدرا (٣ الطلاق) وأنه خلق كل شىء فقده تقديرا (٢ الفرقان) ، فليس لازما خلق سائر الأشياء لحظة إرادة الله لها والأمر بها أو الحكم والقضاء بكونها ، وإنما أمر كل شىء وخلقه على ما قدَّر الله من زمن ومادة وكيفية وميزان ، فكل شىء عنده بمقدار (٨ الرعد) وكل شىء مخلوق بقدره الذى قدر له (٤٩ القمر) ، كما لا يتعارض هذا الأمر مع طلاقة القدرة الإلهية التى لا تقف أمامها المستحيلات العقلية فتلك قضية أخرى تختلف عن واقع ما نتحدث عنه مما جرى خلقه على مقتضى الناموس والتقدير الإلهى .

وإذ قد عرفنا أن مدلول اليوم فى آيات خلق السماوات والأرض يعنى شيئا آخر غير مدلوله الكوكبى المعروف لدى الناس فإن مما يرشح لذلك مجىء لفظ اليوم فى القرآن الكريم مرادا به أزمانا متطاولة يتعلق بعضها بما قبل الكواكب وخلقها ، وبعضها الآخر بما بعد الكواكب وانتهائها ، ويبلغ هذا اليوم بحساب القرآن الكريم ألف سنة ، وهذا يعنى خمسا وستين ألفا وثلاثمائة ألف من مثل يومنا المعروف ، قال تعالى : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (٤٧ الحج) ، ﴿اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّنْ دُونِهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ . يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (٤ – ٥ السجدة) ، بل يبلغ اليوم أكثر من هذا الحساب حيث يصل إلى خمسين ألف سنة (مائتين وخمسين ألف وثمانية عشر مليونا من مثل يومنا الكوكبى المعروف) قال تعالى : ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعذَابٍ وَاقِعٍ . لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ . مِّنَ اللهِ ذِى الْمَعَارِجِ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ . فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً . إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاه قَرِيباً﴾ (المعارج ١ – ٧) .

ونقف قليلا عند هذه الآيات الأخيرة لما فيها من الحقائق الشاملة والإيماءات العميقة التى تهز الفكر والوجدان برغم أنها تعرض لحقائق رياضية حسابية ، ثم لما فى هذه الآيات من تفسير كاشف لحوادث زمنية عرض لها القرآن الكريم وما زالت تغيب حقائقها عن عقول كثير من البشر ويكتنفها غموض يحتاج معه إلى البيان والتوضيح .

إن الملائكة والروح وقد تجردت من عوائق الجسد والتراب التى تقيد الإنسان ، وتجاوزت قوانين الزمان والمكان الأرضية النسبية تصعد الآن فى

طريقها إلى بارئها عبر معارج[1] أمداء لا يحيطها قط خيال إنسان مهما امتد به الخيال ؛ لأنها ستجتاز هذه الأمداء التى تبعثر ت فيها خمسمائة مليون مجرة فى كل منها آلاف المجموعات الشمسية كمجوعتنا وأكبر ستجتاز هذه كلها فى يوم واحد لكنه ليس كأيامنا ولكنه يوم كونى يبلغ ثمانية عشر مليونا وربع المليون من أيامنا الأرضية ، وهكذا لا تعجز الملائكة والروح – المتخفف من أعباء الجسد وشد الأعضاء – أن تفوق حركتها سرعة الضوء فهى تعرج الكون كله فى طريقها إلى خالق الكون جل وعلا فى يوم واحد فى حساب حركتها الزمنية عبر الكون ومن ثم ينادى الله رسوله الكريم وهو يشقى بدعوة أناس يرون يوم الحساب بعيدا كبعد السراب ﴿ فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾[2] .

ويقربنا هذا من فهم تلك الحادثتين الزمنيتين اللتين عرضهما القرآن الكريم فى سيرة نبيين من أنبيائه عليهم السلام وأولى الحادثتين نقل عرش بلقيس من أقصى جنوب الجزيرة العربية إلى أقصى شمالها فى جزء من لحظة ، وثانيتهما الإسراء برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم العروج به إلى رحاب الكون فى ليلة واحدة أو جزء من ليلة .

ونقرأ عن الأولى : ﴿ قَالَ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ . قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ . قَالَ الَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ . قَالَ

---

(١) لاحظ هنا تعبير المعارج القرآنى وما يوحيه من تعرج واعوجاج فى المسار الأمر الذى يشير إليه المهتمون بتسيير المركبات الفضائية من ضرورة سيرها فى مسارات منحنية متعرجة لتصل إلى هدفها المقصود .

(٢) مع القرآن فى عالمه الرحيب – عماد الدين خليل ص ٤٤ .

نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِى أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ . فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ (النمل ٣٨ - ٤٢) .

ويلفت النظر فى هذه الآيات عبارات كهذه ﴿ عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا ﴾ ، كما يثير التساؤل تفوق الإنسان الذى عنده علم من الكتاب على العفريت وتمكنه من اختزال عملية النقل إلى اللحظة ، وربط سليمان عليه السلام إتيانه العلم من قبلها بكونه مسلما أى منقادا لأمر الله وسننه ونواميسه ؟ ثم ألا يعنى هذا كله أن منح علم الكتاب لرجل أو عفريت أو نبى أو ملك هو إطلاعه على الدستور الرياضى والطبيعى لقوانين السماوات والأرض ومن ثم تسخيرها إلى أقصى مدى ممكن لتحقيق منجزات زمنية ومكانية خارقة[1] ؟ .

لقد دل تطور البشرية وتقدمها عبر الأعصر كما دلت إنجازاتها الحضارية المتتالية من تسخير البخار والكهرباء إلى الذرة والالكترون على أن القوانين والسنن الطبيعية التى تسير السموات والأرض إلى غايتها المرسومة فى علم الله والطاقات التى تحتويها هذه الكتلة الكونية هى هى فى كل زمان ومكان ، والذى يتاح له الاطلاع على بعض جوانبها وفاعلياتها يستطيع أن يأتى بالعجب العجاب وأن يتحدى الوقائع المألوفة ويتجاوز تحديات المكان والزمان ، فكيف وأن هذا العلم يمنح مباشرة من الله سبحانه معززا بإرادته التى لا تغلب لذلك الرجل الذى ﴿ عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ ﴾أو إلى نبى كسليمان عليه السلام هل يعجزهما أن يأتيا بعرش بلقيس عبر آلاف الأميال فى جزء تافه ضئيل من لحظة زمنية[2] .

(١) مع القرآن فى عالمه الرحيب ص ٤٥ - ٤٦ .
(٢) السابق ص ٤٨ .

ونقرأ عن الحادثة الثانية ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (الإسراء ١)

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى . عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى . إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى . مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى . لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ (النجم ١٣ – ١٨) . ولقد امتطى الرسول الكريم ﷺ براقا انطلق به من القدس ليجتاز به أمداء الكون صوب سدرة المنتهى حيث جنة المأوى من أجل أن تتاح للرسول ﷺ فرصة نادرة المثال لرؤية جوانب من الملكوت عن كثب تكريما له وتقديرا .

إن البراق هذا المخلوق المجهول الذى يضع خطوة عند أقصى طرفه والذى قطع المسافات الشاسعة فى جزء من ليلة وربما فى لحظات خاطفة – يشتق اسمه من عالم الضوء والكهرباء وهى تسمية ذات مغزى عميق جاءت فى عصر لم يكن فيه أحد قد عرف شيئا عن قوانين الضوء وسرعته وطاقات الكهرباء وإمكاناتها ، وهى فوق هذا تسمية ترمز للتعبير عن الانسجام الكامل بين رحلة الرسول ﷺ وبين سنن العلوم وقوانينها ، تلك الرحلة التى لم يرد لها أن تكون إعجازا يفحم المشركين بعد إذ لم تقنعهم معجزة القرآن ذاتها بقدر ما أريد لها أن تكون رحلة تكريم يطلع فيها الرسول ﷺ على أطراف الكون الذى أبدع الله صنعه وأتقن حبكه وإن كان من بدهيات الأمور أن بإمكان الله سبحانه أن يتجاوز السنن والقوانين فى أية لحظة يشاء لأنه جلت قدرته صانع السنن والقوانين ، ولكن هذه الحقيقة الكبيرة لا تمنع القول بأن رحلة الرسول ﷺ هذه يمكن أن تجد لها تفسيرا وتحليلا حتى على نطاق الطبيعيات والرياضيات .

لحظة من لحظات تجاوز الأبعاد والحواجز الزمانية والمكانية تعتمد السنن نفسها التى نقل فيها عرش بلقيس من أقصى الجنوب وأسرى بالرسول إلى أقصى الشمال وعرج به فى ليلة أو جزء منها إلى أقصى الكون ... السنن التى جعلت

عمر بن الخطاب فيما بعد يصرخ وهو فى مسجد المدينة (يا سارية الجبل الجبل) سارية الذى كان يقاتل فى العراق ويتعرض وجنده لكمين قاتل[1] .

وبالإضافة إلى هذا الزمان الطويل جدا كأحد مفهومات اليوم ومدلولاته فى القرآن الكريم يجيء مدلول آخر هو الزمن النفسى أو الاعتبارى والذى يختلف فيه الإحساس بالزمن ويتفاوت طولا وقصرا على غير ما هو عليه فى الحقيقة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً ﴾ ، ﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ... ﴾ ، ﴿ وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً ﴾[2] (الكهف ١٢ ، ١٩ ، ٢٥) ، ﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِى هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَال لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّه ... ﴾ (البقرة ٢٥٩) ، ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ . قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ . قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعلَمُونَ ﴾ (المؤمنون ١١٢ – ١١٤) ، ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً . يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً . نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً ﴾ (طه ١٠٢ – ١٠٤) .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ

---

(١) مع القرآن فى عالمه الرحيب ص ٤٩ – ٥٠ .

(٢) يلاحظ المراقبون لفروق السنة الشمسية عن السنة القمرية والتى تبلغ عشرة أيام ونصف تقريبا – أن مدة لبث أهل الكهف فى كهفهم بلغ ثلاثمائة سنة شمسية بحساب السنة (ثلاثمائة وخمسة وستين يوما وخمس ساعات ونصف تقريبا) ونفس هذه المدة تبلغ ثلاثمائة وتسع سنين قمرية بحساب السنة (ثلاثمائة وأربعة وخمسين يوما وثمان ساعات ونصف تقريبا) راجع : ظواهر جغرافية – إبراهيم النصيرات ص ٨١ – ٨٢ طبع الأردن ١٩٨١ م ، وانظر الجواهر فى تفسير القرآن الكريم – طنطاوى جوهرى ١٢٩/٩ .

بَيْنَهُمْ ... ﴾ (يونس ٤٥) ، ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الروم ٥٥ – ٥٦) ، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنَ الْعَذَابِ ﴾ (غافر ٤٩) ، ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ... كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ (النازعات ٤٢ ، ٤٦) .

أفينازع منازع بعد هذا التطواف حول آيات الزمن فى القرآن الكريم والوقوف على مدلولات وحدته (اليوم) المتغايرة والمتفاوتة فى أن أيام الخلق الستة تحمل مدلولا آخر غير ما تدل عليه فيما نعرف لليوم من زمن كوكبى ؟ فلنستطلع بعضا من أقوال المفسرين حول هذا الأمر .

يقول ابن كثير : « يخبر الله تعالى أنه خلق العالم سماواته وأرضه وما بين ذلك فى ستة أيام كما أخبر بذلك فى غير ما آية من القرآن ، واختلفوا فى هذه الأيام هل كل يوم منها كهذه الأيام كما هو المتبادر إلى الأذهان أو كل يوم كألف سنة كما نص على ذلك مجاهد والإمام أحمد بن حنبل ويروى ذلك من رواية الضحاك عن ابن عباس[1] .

ويقول صاحب الظلال : « فأما الأيام الستة التى خلق الله فيهم السماوات والأرض فهى كذلك غيب لم يشهده أحد من البشر ولا من خلق الله جميعا ﴿ مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ﴾ ... وكل ما يقال عنها لا يستند إلى أصل مستيقن ، إنها قد تكون ست بمقاييس زماننا الناشىء من قياس حركة الأجرام – إذ لم تكن – قبل الخلق – هذه الأجرام التى نقيس نحن بحركتها الزمان ، وقد تكون شيئا آخر فلا يجزم أحد

(١) راجع : تفسير القرآن العظيم ٢٢٠/٢ طبع الحلبى بمصر بدون تاريخ .

ماذا يعنى هذا العدد على وجه التحديد[1] .

ثم يتساءل فى موضع آخر : « وما هذه الأيام : الاثنان اللذان خلق فيهما الأرض ، والاثنان اللذان جعل فيهما الرواسى وقدر فيهما الأقوات وأحل فيهما البركة فتمت بهما الأيام الأربعة ؟

ويجيب على ذلك بقوله : إنها بلا شك أيام من أيام الله التى يعلم هو مداها ، وليست من أيام هذه الأرض فأيام هذه الأرض إنما هى مقياس زمنى مستحدث بعد ميلاد الأرض ، وكما للأرض أيام هى مواعيد دورتها حول نفسها أمام الشمس ، فللكواكب الأخرى أيام وللنجوم أيام وهى غير أيام الأرض بعضها أقصر من أيام الأرض ، وبعضها أطول ، والأيام التى خلقت فيها الأرض أولا ثم تكونت فيها الجبال وقدرت فيها الأقوات هى أيام أخرى مقيسة بمقياس آخر لا نعلمه ولكننا نعرف أنه أطول بكثير من الأيام المعروفة ، وأقرب ما نستطيع تصوره وفق ما وصل إليه العلم البشرى أنها هى الأزمان التى مرت بها الأرض طورا بعد طور حتى استقرت وصلبت قشرتها وأصبحت صالحة للحياة التى نعلمها ، وهذه قد استغرقت – فيما تقول النظريات التى بين أيدينا – نحو ألفى مليون سنة من سنوات أرضنا .

وهذه مجرد تقديرات علمية مستندة إلى دراسة الصخور وتقدير عمر الأرض بوساطتها ... ونحن لا نحمل القرآن عليها إنما نجد أنها قد تكون صحيحة إذا رأينا بينها وبين النص القرآنى تقاربا ، ووجدنا أنها تصلح تفسيرا للنص القرآنى بغير تمحل فنأخذ من هذا أن هذه النظرية أو تلك أقرب إلى الصحة ؛ لأنها أقرب إلى مدلول النص القرآنى .

والراجح الآن فى أقوال العلم أن الأرض كانت كرة ملتهبة فى حالة غازية كالشمس الآن – والأرجح أنها قطعة من الشمس انفصلت عنها لسبب غير متفق على تقديره – وأنها استغرقت أزمانا طويلة حتى بردت قشرتها وصلبت

(١) راجع : فى ظلال القرآن ١٢٩٦/٣ طبع دار الشروق ١٩٨٢ م .

وأن جوفها لا يزال فى حالة انصهار لشدة الحرارة حيث تنصهر أقسى الصخور[1] .

وبهذا المعنى فى فهم زمن خلق السموات والأرض القائم على ما علم من معانى اليوم فى اللغة والقرآن الكريم يجب أن يفهم ما نقل عن ابن عباس أن اليهود سألوا الرسول ﷺ عن خلق السماوات والأرض فقال : « خلق الله تعالى الأرض فى يوم الأحد والاثنين وخلق الجبال والشجر فى يومين وخلق فى يوم الخميس السماء وخلق فى يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة ثم خلق آدم عليه السلام وأسكنه الجنة ، ثم قالت اليهود : ثم ماذا يا محمد ؟ قال : ثم استوى على العرش ، قالوا : ثم استراح ، فغضب رسول الله ﷺ فنزل قوله تعالى : ﴿ .... وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾[2] (ق ٣٨) .

فإن فهم هذا المنقول على اعتبار أيام الخلق هى نفس أيامنا المعروفة التى تحصل بسبب طلوع الشمس وغروبها أو دورة الأرض مرة حول نفسها كما عرفنا – فهذا فهم باطل ولا يعقل حصول مثل هذه الأيام قبل إيجاد أو خلق السموات والأرض وما فى السماء من شمس وقمر ونجوم[3] .

ويقول الألوسى : « واليوم فى المشهور عبارة عن زمان كون الشمس فوق الأفق ، وأريد منه ههنا الوقت مطلقا لأنه لا يتصور ذلك قبل خلق السماء والكواكب والأرض نفسها ، ثم إن ذلك الوقت يحتمل أن يكون بمقدار اليوم المعروف ويحتمل أن يكون أقل منه أو أكثر ... وأيا ما كان فالظاهر أن اليومين ظرفان لخلق الأرض مطلقا من غير توزيع »[4] .

---

(١) راجع : فى ظلال القرآن ٣١١٠/٥ .

(٢) راجع : تفسير القرآن العظيم ٩٤/٤ ، مفاتيح الغيب الرازى ١٠٩/٢٧ طبع طهران دون تاريخ ، روح المعانى الألوسى ١٠٥/٢٤ طبع لبنان دون تاريخ .

(٣) راجع : مفاتيح الغيب ١٠٧/٢٧ .

(٤) راجع : روح المعانى ٩٩/٢٤ .

وبهذا يظهر لنا فساد تخريج الفخر الرازى وتأويله للخروج من غير المعقول وغير المتصور هذا بقوله : « إن معنى هذا الكلام أنه مضى من المدة – يعنى أثناء الخلق – ما لو حصل هناك فلك وشمس لكان المقدار مقدرا بيوم[(١)] .

كما يظهر فساد تأويله الخلق هنا بالقضاء والحكم للخروج من مشكل تقدم خلق الأرض على خلق السماء كما هو ظاهر الآية ، قال الفخر : والمختار عندى أن يقال : خلق السماوات مقدم على خلق الأرض ويقال فى تأويل الآية إن الخلق ليس عبارة عن التكوين والإيجاد ، بل هو عبارة عن التقدير ، والتقدير فى حق الله تعالى هو حكمه بأنه سيوجده وقضاؤه بذلك ، وإذا ثبت هذا فنقول : قوله تعالى : ﴿ خلق الأرض فى يومين ﴾ معناه أنه قضى بحدوثه فى يومين ، وقضاء الله أنه سيحدث كذا فى مدة كذا لا يقتضى حدوث ذلك الشيء فى الحال ، فقضاء الله تعالى بحدوث الأرض فى يومين قد تقدم على إحداث السماء ، ولا يلزم منه تقدم إحداث الأرض على إحداث السماء »[(٢)] .

---

(١) راجع : مفاتيح الغيب ١٠٧/٢٧ .

(٢) راجع : مفاتيح الغيب ١٠٧/٢٧ – ١٠٨ .

ثانيا : بداية السماوات والأرض وأصلهما

قال الله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنبياء ٣٠) ، ﴿ .... ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا .... ﴾ (فصلت ١١ – ١٢) ، ﴿ اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ (الطلاق ١٢) ، ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ . ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ (الملك ٣ –٤) ، ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾ (االمؤمنون ١٧) ، ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَـٰوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ (الإسراء ٤٤) ، ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (النحل ٤٩) ، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ (الشورى ٢٩) ، ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (الإسراء ٥٥) ، ﴿ مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً ﴾ (الكهف ٥١) .

تقرر الأبحاث الفلكية التي قامت حول الكون المرئى – أى القسم الذى تمكن العلماء من رؤيته بأضخم « التلسكوبات » أن الأرض عبارة

عن كوكب من جملة كواكب سيارة تدور فى أفلاك خاصة حول الشمس ، وتسمى هذه السيارات ومعها الشمس بالمجموعة الشمسية ، وهى مجموعة صغيرة جدا من ملايين المجموعات التى تشكل مجرة واسعة ، وهذه المجرة القريبة منا لا تعدو أن تكون واحدة فحسب من ملايين المجرات التى تملأ جنبات ما ظهر لنا من هذا الكون الواسع »[1] .

هذا موقع الأرض بين أخواتها السيارات التى تشكل جزءا من هذا الكون المرئى ، ولكن ما أصل الأرض وهذه السيارات الدائرة حول الشمس ؟ وما قصة حدوثها جميعا ؟

فى ضوء المشاهدات والحقائق العلمية التى توفرت لعلماء الكونيات تقرر لديهم أن كان هناك نجم عملاق قرين للشمس يكون زوجا معها ويدور فى فلكه كما تدور هى فى فلكها ، ثم انفجر هذا النجم العملاق (من مجموعة النجوم فوق البراقة) بشدة وعنف بالغين ، وانتشر نتاج الانفجار فى كل مكان على حين تكاثفت بعض الغازات الناجمة من الانفجار على مقربة من الشمس وتجمعت فى ظل جاذبيتها فى مراكز الكواكب السيارة التى نعرفها اليوم ، وليس أمر انفجار النجوم البراقة ضربا من الخيال فقد شوهدت فى كثير من المراصد – ومنها مرصد « ولسون » المشهور – مثل هذه الانفجارات تحدث فى بعض النجوم البراقة حيث تناثرت فى كل مرة فى أرجاء الفضاء الفسيح مواد قدر أن مجموعها أكبر بكثير من كتلة الشمس .

وعلى هذا الذى تقرر لدى العلماء ولدت الأرض وأخواتها من المجموعة الشمسية نتيجة تكاثف غازات وسحب ملتهبة لكثير من العناصر التى تكونت داخل النجم البراق الذى كان يتبع الشمس ثم انفجر وتماسكت أطراف تلك الغازات والسحب وكونت شيئا أشبه بغلاف قرصى الشكل تركز على كثب

(١) الفضاء الكونى – الفندى ص ١٢ طبع الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٦م .

من الشمس وأخذ يدور حولها . ومعنى ذلك أن الأم الحقيقية للأرض ليست هى الشمس التى نراها اليوم وإنما هى نجم تفجر منذ القدم ولم نره ولم نعرف عنه شيئا كثيرا[1] .

وهذه المعانى العلمية أو الحقائق المقررة حديثا فى نشأة أفراد المجموعة الشمسية تستوى هى والمعانى القديمة فى تلك النشأة[2] فى أنهما لا يخرجان عن معنى آية سورة الأنبياء التى صدرنا بها هذا الموضوع وهو أن السموات والأرض وسائر الأجرام فى الكون كانت فى الأصل كتلة واحدة متضامة ومتصلة ثم انفصلت بقدرة الله تعالى إلى أجزاء شكل كل منها ما يمكن أن يكون نجما أو كوكبا أو شهابا أو قمرا أو غير ذلك ...

ومن الواضح هنا أن تقرير العلماء قائم على ما انتهى إليه حال السموات والأرض بعد تفتقهما الذى أشارت إليه الآية ، أما حالهما قبل التفتق وهو ما أشارت إليه الآية من حالة الرتق والتضام . وأصلهما الذى كانا عليه فى ذلك الحال الموغل فى القدم فهذا ما نعرض له قريبا فيما يقرره العلماء وتشير إليه آية سورة فصلت .

وحسبنا الآن – وقبل أن نسوق دلائل العلم على أصل المجموعة الشمسية الواحد – أن نقرر الفارق الواضح بين تعرض القرآن الكريم لهذه الحقائق الكونية وتعرض العلم والعلماء لها ، فآيات القرآن الكريم تدل صراحة على إحاطة القرآن الكريم بجوانب الحقيقة الكونية التى لم يعرف بعضها إلا فى عصرنا هذا ، ولا يعرف بعضها الآخر إلا إذا تعلقت إرادة الله تعالى ومشيئته

---

(١) قصة السماوات والأرض – الفندى ص ٣٠ طبع السعب دون تاريخ .

(٢) تقول النظريات السابقة إن الكواكب السيارة بما فيها الأرض هن بنات للشمس نشأن بانفصال منها عندما اقترب منها نجم آخر جبار حيث ترتب على هذا الاقتراب أن تدفقت مواد الشمس الغازية والسائلة بفعل الجاذبية فى اتجاه النجم وأعقب ذلك أن انفصلت أجزاء من تلك المواد عن الشمس نهائيا وانقسم لهبها المتطاير أجزاء كون كل منها كوكبا من هذه السيارات الدائرة فى فلكها ، راجع : الجواهر فى تفسير القرآن الكريم – طنطاوى جوهرى ١٠/١٩٨ ، ٢٠٧ .

بمعرفة البشر لها طبقا لحكمة الله تعالى فى التدرج بتعريف البشر وهدايتهم إلى أسرار كونه ، وإن كانت إحاطة القرآن الكريم بهذه الحقائق وتعرضه لها لا يأتى قصدا وإنما ضمن إشارات غير مقصودة لذاتها كما سبق لنا القول فى منهج القرآن فى تضمنه لهذه الحقائق .

كما نذكر هنا بأن مطابقة كلمات القرآن الكريم وألفاظه للكشوف العلمية الحديثة مبنية على أن العلم الحديث قد استطاع الكشف – مجرد الكشف فحسب – عن أسرار الواقعة موضوع البحث التى أبدعها الله وبثها فى كونه ، فتوفرت بذلك لدينا المواد النافعة لتفسير الإشارات القرآنية فى ذلك الموضوع ، وحتى لو كشفت دراسة المستقبل فى موضوع ما بطلان واقعة من واقعات العلم فى هذا الموضوع كليا أو جزئيا فليس هذا بضائر مطلقا صدق القرآن ، بل معناه أن المفسر أو العالم قد أخطأ فى محاولته لتفسير إشارة مجملة فى القرآن الكريم على حين أن غيره كان أكثر توفيقا منه .

أما عن دلائل العلم الحديث على انفتاق الأرض عن السموات وأنها وسائر الأجرام السماوية والكواكب السيارة التى تدخل فى عداد السموات كانت شيئا واحدا أن العناصر التى تتكون منها سائر هذه المجموعة الشمسية بما فيها الأرض هى نفس العناصر ، والنتائج الأولية التى توصل إليها علماء « الجيولوجيا » بعد فحصهم لصخور سطح القمر المستحضرة أثناء رحلات الفضاء العديدة وإن اختلفت نوعا ما عن الصخور الأرضية إلا أن العناصر المكونة لها واحدة ولها نفس التركيب الأساسى الذى تتكون منه المواد الأرضية .

كما أن التركيب المعدنى العام فى هذه الصخور يشبه إلى حد كبير التركيب المعدنى لصخور كوكب الأرض وإن اختلفت نسبة العناصر فيهما كاختلاف هذه النسبة بين صخرين من كوكب الأرض نفسها ، هذا فضلا عن أن عمر صخور القمر – كما انتهت إليه تحليلات هؤلاء العلماء – هو نفس

عمر الصخور فوق سطح الأرض ، وهذا الأمر فى حد ذاته – فضلا عن العلاقة الفلكية الخاصة بين القمر والأرض دون غيرها من أفراد المجموعة الشمسية – يرشح لما هو سائد اليوم بين العلماء من أن القمر هو جزء منفصل من الأرض عندما كانت قريبة من الشمس[1] .

ولقد وجد بعد ذلك أن مكونات النيازك التى تسقط على الأرض تشبه إلى حد كبير مكونات الأرض من حيث التركيب المعدنى وآخر هذه النيازك ما سقط على سيبريا سنة ١٩٠٨ م .

ومن الدلائل على صحة هذا المعنى العلمى فى انفتاق السماوات والأرض النتائج التى انتهى إليها علماء « الجيولوجيا » والعلوم الأرضية الأخرى فى أبحاثهم المتقدمة واستعانتهم بالآلات الدقيقة المتطورة وهى نتائج لا تقبل جدالا فى هذا الأمر ، ومن هذا النتائج : شدة حرارة باطن الأرض ؛ إذ ترتفع حرارة هذا الباطن درجة واحدة مع كل تعمق فى جوفها يصل إلى ثلاثة وثلاثين مترا أى أن باطن الأرض على عمق ثلاثين كيلو مترا تصل حرارته إلى ألف درجة مئوية ، ولعل من مظاهر هذه النتيجة تلك البراكين التى تظهر من حين إلى آخر وتشاهد فى أنحاء الكرة الأرضية والتى هى عبارة عن الأبخرة والغازات الملتهبة والمواد والصخور المنصهرة فى جوف الأرض والتى تغلبت على نقاط

---

(١) وتتلخص هذه النظرية فى أن الأرض كانت فى مستهل عمرها غلالة رقيقة من الصخور الجرانيتية وقد خضعت لسلسلة متقاربة الدورات من المد والجزر بتأثير جاذبية الشمس التى كانت الأرض على مقربة منها بحيث كان يومها لا يزيد عن أربع ساعات وهى نفس المدة التى كانت تفصل بين مدّين متاليين فى دورة الأرض السريعة ، وقد أدى هذا التوافق لمدة طويلة أن تزايد مستوى المد والجزر لدرجة أن جزءا كبيرا من موجة المد انفصل عن الأرض ودار فى فلك له على قرب منها ، وقد أخذ هذا الفلك فى الاتساع تدريجيا حتى وصل إلى ما هو عليه الآن ، ولم يكن ذلك الجزء المنفصل عن الأرض سوى القمر الذى سلبته الأرض فيما بعد كل ما عليه من ماء وهواء فبقى خرابا لا يصلح للحياة ، ومن الدلائل على انفصال القمر عن الأرض وجود تلك الحفرة الضخمة فى سطح الأرض والمعروفة باسم المحيط الهادى الذى يتكون قاعه من صخور الطبقة السفلى للأرض فى ذلك الحين وهى الطبقة البازلتية . راجع : قصة السموات والأرض – الفندى ص ٣٩ – ٤٠ .

الضعف فى القشرة الأرضية الظاهرة ونفذت منها إلى سطح الأرض حيث شقت لها طريقا تقذف منه الحمم على ارتفاعات شاهقة[1] .

فهذه أدلة مبنية على أسس مادية تعطى بصيصا من النور على أصل المجموعة الشمسية وبها دل العلم وأوضح أن الأرض وسائر ما علاها من الكواكب والأغلفة الغازية وما فوقها وغير ذلك مما سمى فى القرآن الكريم بالسماوات كانتا رتقا ، ثم انفصل كل ذلك بمشيئة الله إلى أجزاء ، فالآية الكريمة الدائرة حول أصل المجموعة الشمسية لا تتنافى معها مقررات العلم التى أكدت أن أفراد هذه المجموعة كانت ذات أصل واحد قبل أن تتكون على الشكل الذى ألفناه .

أما أصل السماوات والأرض ومادة الكون الأولى قبل أن لم تكن سماوات ولا أرضين ولا نجوم ولا شموس فهذا يمكن تصوره على النحو الذى نرى أجزاء خاصة منه الآن فى الفضاء الكونى الذى يمتلىء بغاز خفيف رقيق أشبه ما يكون بالدخان غير المرئى من خفته ، وهذا الغاز أو الدخان ليس شيئا آخر غير غاز « الإيدروجين » الذى له خاصة الانتشار ، وقد أخذ هذا الغاز يتكتل – لسبب من الأسباب – فى مناطق عظيمة الحجوم مكونا مجاميع من السحب تمخضت كل منها عن سديم برمته .

وعلى هذا التصور يمكن القول بأن الكون بدأ فى صورة سحابة هائلة أو سديم من الدخان أشبه ما يكون بقرص ضخم أو دوامة عظيمة دارت فى الفضاء ، وقام غاز « الايدروجين » بدور مهم فى تكوين السديم الذى نشأت عنه المجرات العظيمة ، ومنها مجرتنا القريبة التى تنسب إليها مجموعتنا الشمسية[2] .

---

(١) راجع : قصة السموات والأرض ص ٦ ، ظواهر جغرافية ص ٢٩ .
(٢) قصة السموات والأرض – الفندى ص ٢٧ .

وهذا الأصل للكون الذى سمى لدى العلماء باسم « السديم » لم يرد باسمه فى القرآن الكريم ، ولكن بصفته من أنه كتل هائلة من أجسام دقيقة حارة بعضها غاز وبعضها بخار وبعضها مضىء وبعضها معتم ، وكل ذلك دل عليه القرآن الكريم فى كلمة واحدة هى كلمة « دُخَانٌ » فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ حيث جمع الله فيها أهم صفات السديم الذى هو فى اللغة يعنى الضباب الرقيق ، بل كانت كلمة « دُخَانٌ » أدل على مدلولها من كلمة السديم (الضباب) لدلالة الأولى على احتواء الحرارة ، وهى من أهم صفات السديم الفلكى[1] ، فالدخان هو اللفظ العلمى الذى يدل على مادة الوجود وحقيقته ولا يوجد بديل له . يساويه حتى فيما سماه العلماء بالسديم ؛ لأن الغلاف الغازى الذى يحوى المواد الصلبة العالقة فيه هو فى الواقع الدخان الذى أوردته الآية القرآنية الكريمة[2] .

وإذا ما استطلعنا الآن آراء المفسرين حول بداية السموات والأرض وأصلهما – بعد معرفتنا لآراء العلماء – فماذا نحن واجدون لديهم ؟ ولنبدأ هنا بمن نظنه أكثر المفسرين تحفظا فى هذا الأمر وأشدهم احتياطا .

يقول صاحب الظلال : « إن هناك اعتقادا أنه قبل خلق النجوم كان هناك ما يسمى السديم ، وهذا السديم غاز (دخان) ، وهذه السدم – من نيرة ومعتمة – ليس الذى بها من غاز وغبار إلا ما تبقى من خلق النجوم . إن نظرية الخلق تقول : إن المجرة كانت من غاز وغبار ومن هذين تكونت بالتكثف النجوم وبقيت لها بقية ، ومن هذه البقية كانت السدم ، ولا يزال من هذه البقية منتشرا فى هذه الحجرة الواسعة مقدار من غاز وغبار يساوى ما تكونت منه النجوم ، ولا تزال النجوم تجر منه بالجاذبية إليها ، فهى تكنس السماء منه كنسا ولكن الكناسين برغم أعدادهم الهائلة قليلون بالنسبة لما يراد

(١) راجع : الإسلام فى عصر العلم – محمد الغمراوى ص ٣٣٧ .
(٢) ظواهر جغرافية – النصيرات ص ٣١ .

كنسه من ساحات أكبر وأشد هولا .

ثم يعقب المفسر على هذا المنقول بقوله : « وهذا الكلام قد يكون صحيحا لأنه أقرب ما يكون إلى مدلول الحقيقة القرآنية ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ وإلى أن خلق السماوات تم فى زمن طويل فى يومين من أيام الله »[1] ، ويقول فى موضع آخر : « إن تقرير القرآن الكريم أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقتا مسألة جديرة بالتأمل كلما تقدمت النظريات الفلكية فى محاولة تفسير الظواهر الكونية فحامت حول هذه الحقيقة التى أوردها القرآن الكريم ، والنظرية القائمة اليوم هى أن المجموعات النجمية – كالمجموعة الشمسية المؤلفة من الشمس وتوابعها ومنها الأرض والقمر – كانت سديما ثم انفصلت وأخذت أشكالها الكروية ، وأن الأرض كانت قطعة من الشمس ثم انفصلت عنها وبردت »[2] .

هذا تقرير القرآن الكريم وتلك أقوال العلماء ، وقد يشير القرآن الكريم إلى حقائق كونية كهذه الحقيقة التى يقررها هنا « أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما » ونحن نستيقن هذه الحقيقة لمجرد ورودها فى القرآن الكريم وإن كنا لا نعرف منه كيف كان فتق السماوات والأرض أو فتق السماوات عن الأرض ، وحسبنا أن نتقبل النظريات الفلكية التى لا تخالف هذه الحقيقة المجملة التى قررها القرآن الكريم دون أن نجرى بالنص القرآنى وراء أية نظرية فلكية ولا نطلب تصديقا للقرآن الكريم فى نظريات البشر وهو حقيقة مستيقنة ، وقصارى ما يقال : إن النظرية الفلكية القائمة اليوم لا تعارض المفهوم الإجمالى لهذا النص القرآنى السابق عليها بأجيال وأجيال[3] ، وصدق

---

(١) فى ظلال القرآن – سيد قطب ٥/٣١١٤ .

(٢) ألف الشهيد كتابه « فى ظلال القرآن » ولم تزل لنظرية انفتاق الأرض عن الشمس السيادة قبل أن تزيحها وتحل محلها نظرية انفتاق الأرض والسيارات الأخرى من نجم آخر كان زوجا لهذه الشمس .

(٣) راجع : فى ظلال القرآن – سيد قطب ٥/٢٣٧٥ – ٢٣٧٦ .

الله العظيم ﴿ مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴾..

وهذا النظر العلمى الذى يطرح اليوم حول خلق السماوات والأرض ولا يعارض – كما يقول صاحب الظلال – المفهوم الإجمالى للنص القرآنى نجد نظيرا له وأصولا شاهدة عليه فى أقوال وتفسيرات الصحابة والتابعين وكبار مفسرى الأثر والرأى على قلة المعارف الكونية التى توفرت لعهودهم .

يقول الإمام ابن كثير : كانت رتقا أى كان الجميع متصلا بعضه ببعض متلاصق متراكم بعضه فوق بعض فى ابتداء الأمر ، ففتق هذه من هذه فجعل السماوات سبعا والأرض سبعا وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء فأمطرت السماء وأنبتت الأرض .

وكأنى بابن كثير يجمع هنا بين آراء كثير من السلف ويلفق منها رأيه فى تفسير الآية فهو إذ يجمع بين الروايتين عن ابن عباس والتى إحداهما عن عكرمة والأخرى عن ابن عمر وعطية العوفى يضم إليهما رأى أبى صالح الحنفى والحسن وقتادة ، ثم قول سعيد بن جبير الذى يرفض فيه رأى مجاهد فى عدم مماسة السموات والأرض ، قال سعيد : بل كانت السماء والأرض ملتزقتين ، فلما رفع السماء وأبرز منها الأرض كان ذلك فتقهما الذى ذكر الله فى كتابه[1] .

كما يجمع الفخر الرازى أقول المفسرين هنا من الصحابة والتابعين – على نحو آخر – بما لا يخرج عما انتهى إليه ابن كثير وعلماء الهيئة والفلك حديثا ، قال الفخر : اختلف المفسرون فى المراد من الرتق والفتق[2] على أقوال : **أحدها** وهو قول الحسن وقتادة وسعيد بن جبير ورواية عكرمة عن ابن عباس

---

(١) راجع : تفسير القرآن العظيم ١٧٦/٣ – ١٧٧ .

(٢) الرتق فى اللغة السد وهو ضد الفتق يقال رتقت الفتق أرتقه فارتتق أى التأم ، ومنه المرأة الرتقاء ، والفتق الشق والفصل بين الشيئين الملتصقين راجع : مختار الصحاح فى المادتين ، فتح القدير – الشوكانى ٤٠٥/٣ طبع الحلبى دون تاريخ .

أن المعنى كانتا شيئا واحدا ملتزقتين ففصل الله بينهما ورفع السماء إلى حيث هى وأقر الأرض ... قال كعب : خلق الله السماوات والأرض ملتصقتين ثم خلق ريحا توسطتهما ففتقهما بها . **ثانيها** وهو قول مجاهد وأبى صالح أن المعنى كانت السماوات مرتتقة فجعلت سبعا وكذلك الأرضون . **وثالثها** وهو قول ابن عباس وأكثر المفسرين أن السماوات والأرض كانتا رتقا بالاستواء والصلابة ففتق الله السماء بالمطر والأرض بالنبات والشجر ، ورجحوا هذا الوجه على سائر الوجوه .

ثم يوازن الفخر الرازى بين هذه الأقوال فيقول : « فإن قلت أى الأقوال أليق بالظاهر ؟ قلنا : الظاهر يقتضى أن السماء على ما هى عليه والأرض على ما هى عليه كانتا رتقا ، والرتق ضد الفتق ، فإذا كان الفتق هو المفارقة فالرتق يجب أن يكون هو الملازمة ، ويصير الوجه الأول أولى الوجوه ويتلوه الوجه الثانى وهو أن كل واحد منهما كان رتقا ففتقهما بأن جعل كل واحد منهما سبعا ويتلوه الثالث وهو أنهما كانا صلبين من غير فطور وفرج فتقهما لينزل المطر من السماء ويظهر النبات على الأرض[1] .

ومن الواضح هنا أن ما ذهب إليه الفخر من كون الوجه الأول أولى من غيره هو الذى يتفق مع ظاهر الآية وإجراء ألفاظها على ما تقتضيه اللغة فى معجمها الدلالى لمعنى كل من الرتق والفتق من جهة ، ولنسبة الفتق فى الآية إلى الأرض وجميع السماوات من جهة أخرى على حين أن تفسير ابن عباس يجعل الفتق للأرض والسماء الدنيا فحسب ، وهى السماء التى تحمل مياه الأمطار إلى أرضنا هذه مع أن السماوات بالجمع أساس فى فهم الآية على وجهها الصحيح .

---

(١) مفاتيح الغيب – الرازى ١٦٢/٢٢ .

ثالثا : السماوات السبع والأرضون السبع وما فيهن

لقد تعرضنا من قبل إلى زمن خلق السماوات والأرض ، ثم ما كانا عليه قبل حالة انفتاقهما ومادة تكوينهما قبل خلقهما ، ولعل القارىء قد طال به الانتظار ليعرف المعنى العلمى لكل من السماء والأرض وإن كان يحسهما ويدركهما عن قرب يرى الأولى ببصره صباح مساء ويمشى فى مناكب الأخرى ليل نهار ، والواقع أن معلوماتنا الأولية عن الكون تبدأ بهذه الأرض التى عاش عليها الإنسان وجاب أغلب أركانها وعرفها واستوعب ما فيها ، أما باقى الكون الذى يفصلنا عنه الفضاء الواسع فلا سبيل إلى معرفة الإنسان له إلا باختراقه بجسده (داخل مركبات خاصة) أو بالعلم الذى يمكننا من درس وتحليل ما يصلنا من أرجاء الكون المختلفة كالأضواء والحرارات والمناظر التى توقفنا على حقيقته .

ومن المألوف أن نطلق لفظ الأرض أو الكرة الأرضية على الكوكب الذى نسكنه سواء من اليابس أو الماء أو ما يحيط بهما من هواء ، وهذه فى مجموعها تمثل الجزء الظاهر من الأرض فى مقابلة الجزء الباطن منها وهو جوف الأرض أو جسم الأرض الداخلى[1] .

وإذا اعتبرنا السماء تلك القبة الزرقاء التى تبدو من فوقنا على الدوام فإن مثل هذا التعريف – مع أنه يصادف هوى فى نفوس كثير منا لأنه يطابق ما انطبع فى خيال البشرية منذ القدم – هو تعريف خاطىء ، فتلك القبة الزرقاء لا تعلو فى مجموعها جو الأرض ، ولا تخرج فى حقيقتها عن كونها

(١) راجع : قصة السماوات والأرض – الفندى ص ٤ .

ظاهرة من ظاهرات الضوء فى هذا الجو الأرضى[1] ، ولعل خير وسيلة لإعطاء السماء معنى دونه كل المعانى أن نتصورها الكرة الجامعة لجميع الأفلاك والنجوم فى المجرة القريبة أى فى حدود الكون المادى الذى يعلو الأرض ويقابلها ، فالسماء اسم لما علاك .. وارتفع فوق رأسك[2] ، وأنت إنما تتصور عند سماعك لفظ السماء هذا الكون الذى فوقك فيه الشمس والقمر وسائر الكواكب تجرى فى مجاريها وتتحرك فى مداراتها ، وأعم معانى السماء هذا الكون بأسره الذى يبدأ بالنسبة لنا بغلاف الأرض الجوى الذى تسبح فيه السحب ، وينهمر منه المطر ، ثم سائر الكواكب فالنجوم الضاربة فى أعماق الفضاء .

وعلى هذا فالسماوات السبع تحديد للنوع مما خلق الله فوقنا من هواء وشهب ونيازك وأقمار ومذنبات وكواكب وشموس يعلو بعضها بعضاً وتتألف منها عوالم الكون أو طباق السماوات[3] ، وهكذا نرى أن السماوات السبع ليست شيئاً فوق التصور أو الإدراك البشرى الأمر الذى قعد بالقدماء حين تصوروها مثل بحار الأرض ومحيط الظلمات تسكنها الأشباح وتهيم فيها الأرواح ، أو قالوا بأنها السيارات السبع المعروفة – التى وصلت إلى عشر بعد ذلك – بل يمكن استمداد معرفتنا لهذه السماوات السبع عن طريقين : أولهما النصوص الدينية النقلية التى تبصرنا بعالم الغيب والعوالم الأخرى ، وثانيهما

---

(١) يرجع العلماء نشوء هذه الظاهرة إلى تشتت موجات الإشعاع الشمسى الزرقاء الكثيفة فى جو الأرض وغمرها له بكميات وفيرة من اللون الأزرق الذى ينتشر بفعل جزيئات الهواء وما يعلق به من ذرات الغبار وبخار الماء فيبدو الجو بدوره كقبة زرقاء على حين أنه لا وجود لهذه القبة فى صورة جسم مادى أو سماء متجسدة كما يتصور الكثير من الناس راجع : قصة السماوات ص ٢١ ، ظواهر جغرافية ص ٩٦ .

(٢) راجع : مختار الصحاح مادة سما .

(٣) راجع : قصة السماوات والأرض ص ١٧ ، الله والكون ص ٢٤٣ ، وهناك تعريف آخر للسماوات السبع حسب تفسير السماء والمراد بها – أنها أفضية منسابة يتبعثر خلالها ضوء الشمس الفيزيقية ويرتد من كل جانب ، راجع : ظواهر جغرافية ص ١٠١ .

العلم الذى يبصرنا بما حولنا من عوالم الحس إذا استجبنا لتوجيه الله – عز وجل – فى قوله تعالى : ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾(يونس ١٠١) ، ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ... ﴾ (الأعراف ١٨٥) [١].

أما عن الأرضين السبع فيطرح العلم عنها فكرة محددة فحواها أنه إذا كانت السماء هى كل ما يعلو فوق أرضنا فإن كلمة فوق أو تحت هنا تحمل معنى النسبية ، أى بالنسبة لنا ، فما يعلو رؤوسنا من فوق هو سماء وما يكون تحت أقدامنا هو أرض ، وإذا ما فرض انعتاق أحد من هذه الأرض وانتقاله إلى كوكب آخر أو جرم كان يعلوه وهو على هذه الأرض ، وثبت على هذا الجرم بقدميه – كما حدث من رواد الفضاء عند هبوطهم على سطح القمر – صار هذا الجرم بالنسبة له أرضاً ؛ لأنه صار من تحته ، كما تصير الأرض من السماوات لأنها أصبحت فوق رأسه ، وهذا المعنى الواضح الجلى يحمل على التسليم بأنه إذا كانت هناك سبعة أنواع من السماوات فإن ذلك يعنى بالتبعية وجود سبْعة أنواع من الأرض كذلك [٢].

كما يطرح بعض العلماء فكرة أخرى عن هذه الأرضين السبع التى لابد أن تكون كرات أثيرية تحيط بالكرة الأرضية وتتخللها ضرورة أن تكون السبع أرضين مثل السماوات السبع كما قال تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ... ﴾ (الطلاق ١٢)[٣] .

وحول سكان السماوات والأرض يؤكد العلم أن الأرض – دون غيرها من سائر المجموعة الشمسية المتفجرة من النجم البراق زوج الشمس –

---

(١) الله والكون – محمد جمال الدين الفندى ص ٢٩٧ طبع الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٦ م .
(٢) الله والكون ص ٢١٣ .
(٣) ظواهر جغرافية ص ١٠١ .

استأثرت بالظروف الملائمة لظهور الحياة عليها ، ولكن إذا عرفنا أن هذا النجم ليس إلا واحداً من عشرات الملايين من النجوم البراقة التى ينفجر واحد منها كل مائتين إلى ثلاثمائة سنة فيخلف لنا كوكباً مثل الأرض فى ظروفها المشار إليها – كان لنا أن نقرر أن هناك من الكواكب – فى طريق التبانة – التى قد توجد عليها الحياة نحو مليون كوكب[١] .

ولكن ما مبلغ ما وصل إليه العلم الحديث نحو سر وجود الحياة فى كوكب غير أرضنا ؟ إن كل ما وصل إليه العلم من هذا هو أن وجود الحياة على غير كوكبنا هذا أمر ممكن ، بل هو أمر راجح حيث يتوافر لنحو مليون كوكب فى مجرتنا وحدها المناخ اللازم لحياة عضوية مثل الحياة الموجودة عندنا ، ويواصل الإنسان اليوم جهوده للبحث عن هذه الحياة الأخرى فى الكون وقد خرج من أسر الجاذبية الأرضية فرمى بالرسائل الحديدية المكتوبة إلى خارج النظام الشمسى لعلها تلتقط من قِبل مخلوقات أخرى فتعلم بوجودنا فى الأرض ، كما شيّد الإنسان السوارى المرصدية كى يلتقط الأمواج الأثيرية المحتمل إرسالها من طرف هذه المخلوقات المفترض وجودها ، وقد درس الإنسان كل ما قيل عن الأطباق الطائرة وقد أدت دراسته إلى أنها ظواهر وأحداث موجودة فعلاً ولكن لا أحد يعلم عنها أو عن أسبابها شيئاً كثيراً[٢] .

وإذا ما علم الإنسان شيئاً عن هذه الحياة على أى جرم سماوى غير الأرض – داخل مجرتنا أو خارجها – فإن تلك الحياة سوف تكون لدواب أيا كان شكلها أو حجمها أو تركيب أجسادها الكيميائى ، ودليل المؤمنين بالعلم وحده فى هذا المجال هو حساب الاحتمال الرياضى الذى يقرر نشأة الحياة وتدرجها حيثما تتوفر البيئة الملائمة والوقت الكافى ، وقد عرفنا قبل تحقق هذين الشرطين لنحو مليون كوكب فى مجرتنا وحدها .

(١) راجع : قصة السماوات والأرض ص ٣٣ ، وانظر : الجواهر فى تفسير القرآن الكريم ١٩٥/٢٤ .

(٢) انظر : لله للعلم – بشير التركى ص ٢٠٠ طبع تونس ١٩٧٩ م .

أما فئة المؤمنين بالعلم والدين كليهما فأمامهم أيضاً كتاب الله (القرآن الكريم) وسنة نبيه ﷺ يحدثانهم عما لا يقع تحت الحس أو ما لا يرصد بالطرق المباشرة ، حيث لا يذكر القرآن لهم – فحسب – وجود مخلوقات أخرى عديدة من بينها الملائكة والجن والدواب ... ولكنه يذكرهم كذلك بقدرة الله على جمعهم ولقاء بعضهم بعضاً ، فيقول تعالى : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (النحل ٤٩) ، ويقول تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾(الشورى ٢٩)[١] .

وما زالت جهود العلماء وأبحاثهم متجهة نحو المريخ من مجموعتنا الشمسية باعتباره أكثر الكواكب احتمالاً لوجود الحياة فيه لقرب الشبه بينه وبين الأرض من حيث الحجم والموقع من الشمس ، ولا يستبعد العلماء أن يكون الأحياء فى المريخ – لو كانت عليه حياة – أكثر تقدماً وأقوى ذكاءً من إخوانهم الأحياء فى الأرض ، وذلك لتقدم فقدانه للحرارة عن الأرض ، ونشوء الحياة عليه تبعاً لذلك قبل نظيرتها على الأرض بملايين السنين ، وليس ببعيد أن يؤكد لنا صحة هذا الاحتمال إخواننا الكبار أنفسهم من أهل المريخ برسالة يبعثون بها عبر الأثير فى يوم من الأيام[٢] .

هذا ولا نجد فيما قاله المفسرون القدامى ما يضيف تفصيلاً أو توضيحاً لهذه السماوات السبع والأرضين السبع سواء من أقوالهم أو من أقوال أصحاب الهيئة القديمة إلا ما روى مرفوعاً إلى الرسول ﷺ أو ما نسب إلى بعض الصحابة والتابعين .

فها هو الفخر الرازى أكثر المفسرين اهتماماً بالهيئة القديمة يقول : اعلم

---

(١) انظر : الله والكون ص ٢١٤ ، ٤٢٦ ، لله العلم ص ٢٠٢ .
(٢) راجع : قصة السموت والأرض ص ٦٣ – ٦٤ .

أن القرآن ههنا قد دل على وجود سبع سماوات ، ونقل عن أصحاب الهيئة أن أقربها إلينا كرة القمر وفوقها كرة عطارد ثم كرة الزهرة ثم كرة الشمس ثم كرة المريخ ثم كرة المشترى ثم كرة زحل ، ويذكر زعم أصحاب الأرصاد وأرباب الهيئة أن الأفلاك تسعة ، السبعة المذكورة ثم الفلك الثامن والفلك التاسع الذى هو الفلك الأعظم ... إلى أن يعقب بقوله : « واعلم أن هذا الخبط مما ينبهك على أنه لا سبيل للعقول البشرية إلى إدراك هذه الأشياء ، وأنه لا يحيط بها إلا علم فاطرها وخالقها ، فوجب الاقتصار فيه على الدلائل السمعية ، فإن قال قائل : فهل يدل التنصيص على سبع سماوات على نفى العدد الزائد ؟ قلنا : الحق أن تخصيص العدد بالذكر لا يدل على نفى الزائد »[1] .

ويذكر الرازى أن المشهور فى الأرض أنها ثلاث طبقات : طبقة أرضية محضة ، وطبقة طينية وهى غير محضة ، وطبقة منكشفة بعضها فى البحر وبعضها فى البر وهى المعمورة ، كما لا يستبعد أن تكون الأرضين السبع أقاليم على حسب سبع سماوات وسبع كواكب فيها ، وهى السيارة فإن لكل واحد من هذه الكواكب خواص تظهر آثار تلك الخواص فى كل إقليم من أقاليم الأرض فتصير سبعة بهذا الاعتبار ، ثم يزعم أن ما ذكره هنا مما لا يأباه العقل ، وغيره غير معتبر عند أهل التحقيق .[2] ، ولكن الحافظ ابن كثير يشنع على هذا القول المخالف لما ورد فى الأثر الصحيح فيقول : « ومن حمل ذلك على سبعة أقاليم فقد أبعد النجعة وأغرق فى النزع وخالف القرآن بلا مستند »[3] .

ومع سقوط أقوال أصحاب الهيئة القديمة ومزاعمهم بما اكتشفته الهيئة الجديدة وصار فى دائرة مدركات علمائها الحسِّية – نجد من المفسرين المحدثين

---

(١) راجع : مفاتيح الغيب ١٥٦/٢ ، ١٥٧ ، ومن الملاحظ هنا أن عجز كلام الفخر يضرب أوله حيث يرد علم هذه الأشياء إلى خالقها ثم يقع فى أسر نظرية الأفلاك أو الكرات التسع فأكثر فيذكر أن التنصيص على سبع سموات لا يدل على نفى الزائد .

(٢) راجع : مفاتيح الغيب ٤٠/٣٠ .

(٣) راجع : تفسير القرآن العظيم ٣٨٥/٤ .

من لا يزال يردد هذه الأقوال والمزاعم ، يقول الألوسيّ : لا يقال إن أرباب الأرصاد أثبتوا تسعة أفلاك ، وهل هي إلا سماوات ؟ لأنا نقول : هم شاكون إلى الآن فى النقصان والزيادة ... إلى أن قال : « وأطال الإمام الرازى الكلام فى ذلك وأجاد ، على أنه إن صح ما شاع فليس فى الآية ما يدل على نفى الزوائد بناء على ما اختاره الإمام من أن مفهوم العدد ليس بحجة »[١] .

أما عن الأرضين السبع فيقول القرطبى : « ذكر تعالى أن السماوات سبع ولا خلاف فى أنها كذلك بعضها فوق بعض كما دل على ذلك حديث الإسراء[٢] وغيره ، ولم يأت للأرض فى التنزيل عدد صريح لا يحتمل التأويل إلا قوله تعالى : ﴿ ... ومن الأرض مثلهن ﴾ ، وقد اختلف فى المثلية هل تكون فى العدد واللفظ ؛ لأن الكيفية والصفة مختلفة بالمشاهدة والأخبار ؟ ، والجمهور على أنها سبع أرضين طباقاً بعضها فوق بعض بين كل أرض وأرض مسافة كما بين السماء والسماء ، وفى كل أرض سكان من خلق الله ، وعن الضحاك أنها سبع أرضين ولكنها مطبقة بعضها على بعض من غير فتوق بخلاف السماوات »[٣] .

ويرى الألوسى أن المثلية فى الآية تصدق بالاشتراك فى بعض الأوصاف ، وينقل قول الجمهور : هى ههنا - أى المثلية - فى كونها سبعاً وكونها طباقاً بعضها فوق بعض ، بين كل أرض وأرض مسافة كما بين السماء والأرض ، وفى كل أرض سكان من خلق الله عز وجل لا يعلم حقيقتهم إلا الله تعالى ، كما ينقل أقوال غير الجمهور بما فيها أقوال أصحاب الهيئة القديمة والهيئة

---

(١) راجع : روح المعانى ٢١٧/١ .

(٢) انظر حديث الإسراء بطوله عن أنس بن مالك فى : صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب الإسراء برسول الله ﷺ وفرض الصلوات ١٤٥/١ - ١٥٠ تصحيح فؤاد عبد الباقى .

(٣) راجع : الجامع لأحكام القرآن ٢٨٥/٢ ، ١٧٤/١٨ نشر لبنان ١٩٦٧ م مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية .

الجديدة - على عصره - ويختمها باختيار قول الجمهور الذى لا يخرج عن مفهوم الآثار الواردة ، وهى فى ذاتها مجملة تحتاج إلى تفسير وتوضيح .

ولكن الألوسى مع هذا الاختيار والتحفظ فى الرأى يتردد فى القول حيث يفسح لرأى أصحاب الهيئة والتأويل صدراً واسعاً ومحلاً عالياً لا يمنعه من قبوله - كما يقول - إلا رعاية أذهان العوام المقيدين بالظواهر ، قال : « نعم أكثر الأخبار فى أمر السماوات والأرض والكواكب لا يعول عليها ، وكذا ما قاله أهل الهيئة قدماؤهم ومحدثوهم ، وفى كل مما ذهب الفريقان إليه ما يوافق أصولنا وما يخالفها ، وما شريعتنا ساكتة عنه لم تتعرض له بنفى أو إثبات ، وحيث كان من أصولنا أنه متى عارض الدليل العقلى الدليل السمعى وجب تأويل الدليل السمعى للدليل العقلى لأنه أصله[1] ، ولأن باب التأويل أوسع من فلك الثوابت ، ولا أرى بأساً فى ارتكاب تأويل بعض الظواهر المستبعدة بما لا يستبعد ، وإن لم يصل الاستبعاد إلى حد الامتناع إذا تضمن ذلك مصلحة دينية ولم يستلزم مصادمة معلوم من الدين بالضرورة ، وقد يلتزم الإبقاء على الظاهر وتفويض الأمر إلى قدرة الله التى لا يتعاصاها شىء رعاية لأذهان العوام المقيدين بالظواهر الذين يعدون الخروج عنها لا سيما إلى ما يوافق الحكمة الجديدة ضلالاً محضاً وكفراً صراحاً ، وبالجملة من صدق بسعة ملك الله تعالى وعظيم قدرته لا ينبغى أن يتوقف فى وجود سبع أرضين على الوجه الذى قدمناه ويحمل السبع على الأقاليم أو على الطبقات المعدنية والطينية ونحوهما مما تقدم ، وليس فى ذلك ما يصادم ضرورياً من الدين أو يخالف قطعياً من أدلة المسلمين »[2] .

(١) فى المسألة تفصيل لهذا الإجمال يراجع فى مظانه من كتب الأصول ، وراجع : درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية فى مواضع عدة من أجزائه العشرة تحقيق محمد رشاد سالم طبع جامعة الإمام - الرياض ١٩٧٩ م ، وانظر : اتجاهات التجديد فى تفسير القرآن الكريم - المؤلف ص ٦٤٠ طبع دار التراث ١٩٨٢ م .

(٢) راجع : روح المعانى ١٤٢/٢٨ ، ١٤٤ وسوف نعرف بعد ارتضاء الألوسى للتفصيل الذى حكاه حول الأرضين عن بعض الشيعة الإمامية .

والظاهر أن مسألة السماوات السبع والأرضين السبع من الصعوبة والخفاء بحيث تعلو على أفهام كثير من الناس وتستدعى منهم تأهيلاً خاصاً يرق إلى مستوى فهم ابن عباس رضى الله عنهما وأهليته الخاصة حتى يأمنوا الزلل والتكذيب بحقيقة هذه السبع سماوات وأرضين ، فقد أخرج ابن جرير بسنده عن مجاهد عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ : « لو حدثتكم بتفسيرها لكفرتم وكفركم تكذيبكم بها » ، ومثله عن عبد بن حميد ولفظه : « لكفرتم بتكذيبكم بها »[1] ، وعن سعيد بن جبير قال ابن عباس : « ما يؤمنك إن أخبرتك بها فتكفر »[2] .

ولكن من العلماء من تعرض للكلام على هذه الأرضين السبع بنوع من التفصيل الذى لا ندرى له مصدراً ، فعن أبى الحسن الرضا - فيما أخرجه العياشى - قال : بسط كفه اليسرى ثم وضع اليمنى عليها فقال : « هذه الأرض الدنيا والسماء الدنيا عليها قبة ، والأرض الثانية فوق السماء الدنيا والسماء الثانية فوقها قبة ، والأرض الثالثة فوق السماء الثانية والسماء الثالثة فوقها قبة ، حتى ذكر الرابعة والخامسة والسادسة فقال : والأرض السابعة فوق السماء السادسة والسماء السابعة فوقها قبة وعرش الرحمن فوق السماء السابعة ، قال الألوسى : « فليكن كل أرض من هذه الأرضين محمولة بيد القدرة بين كل سماءين على نحو ما سمعت من الرضا »[3] .

أما القتبى فى عيون الأخبار فيحكى عن إسماعيل بن أبى خالد قال : « كانت السماء مخلوقة وحدها والأرض مخلوقة وحدها ففتق من هذه سبع سماوات ومن هذه سبع أرضين ، خلق الأرض العليا فجعل سكانها الجن والإنس وشق فيها الأنهار وأنبت فيها الأثمار وجعل فيها البحار وسماها رعاء ،

---

(١) راجع : تفسير القرآن العظيم ٣٨٥/٤ ، روح المعانى ١٤٥/٢٨ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ٣٨٥/٤ .
(٣) راجع : روح المعانى ١٤٤/٢٨ .

عرضها مسيرة خمسمائة عام ، ثم خلق الثانية مثلها فى العرض والغلظ ، وجعل فيها أقواماً أفواههم كأفواه الكلاب وأيديهم أيدى الناس وآذانهم آذان البقر وشعورهم شعور الغنم ، فإذا كان عند اقتراب الساعة ألقتهم الأرض إلى يأجوج ومأجوج ، واسم تلك الأرض الدكاء ، ثم خلق الأرض الثالثة غلظها مسيرة خمسمائة عام ومنها هواء إلى الأرض ، والرابعة خلق فيها ظلمة وعقارب لأهل النار مثل البغال السود ولها أذناب مثل أذناب الخيل الطوال ، يأكل بعضها بعضاً فتسلط على بنى آدم ، ثم خلق الله الخامسة مثلها فى الغلظ والطول والعرض ، فيها سلاسل وأغلال وقيود لأهل النار ، ثم خلق الله الأرض السادسة واسمها ماد ، فيها حجارة سود بهم ومنها خلقت تربة آدم عليه السلام تبعث تلك الحجارة يوم القيامة ، وكل حجر منها كالطود العظيم ، وهى من كبريت تعلق فى أعناق الكفار فتشتعل حتى تحرق وجوههم وأيديهم فذلك قوله عز وجل : ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ (البقرة ٢٤) ، ثم خلق الله الأرض السابعة واسمها عربية وفيها جهنم فيها بابان اسم الواحد سجين واسم الآخر الفلق ، فأما سجين فهو مفتوح ، وإليه ينتهى كتاب الكفار ، وعليه يعرض أصحاب المائدة وقوم فرعون ، وأما الفلق فهو مغلق لا يفتح إلى يوم القيامة »[1] .

وحيث تؤكد الآثار المرفوعة على سبعية الأرض مثل السماوات فتفيدنا وجهاً قطعياً فى المماثلة بينها وبين السماوات السبع من حيث العدد فإنها تقف عند هذا الحد لا تتجاوزه ، ولا يضيف تفصيلاً أكثر من ذلك إلا حديث أبى هريرة – على ما فيه من غرابة وانقطاع – عند الترمذى فى السماوات السبع والأرضين السبع ، وتنحصر إضافة هذا الحديث التفصيلية فى وجه آخر هو البعد – أو المسافة – بين كل سماءين وكل أرضين .

فعن سعيد بن زيد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أخذ

(١) راجع : الجامع لأحكام القرآن – القرطبى ٢٨٣/١١ .

شبراً من الأرض ظلماً طوقه الله إلى سبع أرضين » ، ومثله عن عائشة ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يأخذ أحد شبراً من الأرض بغير حقه إلا طوقه الله إلى سبع أرضين يوم القيامة »[1] .

وأخرج أبو نعيم وابن حبان عن صهيب أن رسول الله ﷺ لم ير قرية يريد دخولها إلا قال حين يراها : « اللهم رب السماوات السبع وما أظللن ، ورب الأرضين السبع وما أقللن ، إنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها ، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها »[2] ، وروى الترمذى عن أبي هريرة قال : بينما نبى الله ﷺ جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب ، فقال نبى الله ﷺ : « هل تدرون ما هذا ؟ فقالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : هذا العنان ، هذه روايا الأرض يسوقه الله إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه ، قال : هل تدرون ما فوقكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنها الرقيع سقف محفوظ وموج مكفوف ، ثم قال : هل تدرون كم بينكم وبينها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : بينكم وبينها مسيرة خمسمائة عام ، ثم قال : هل تدرون ما فوق ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإن فوق ذلك سماءين بعد ما بينهما مسيرة خمسمائة سنة — ثم قال كذلك حتى عدّ سبع سماوات ما بين كل سماءين ما بين السماء والأرض ، ثم قال : هل تدرون ما فوق ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإن فوق ذلك العرش وبينه وبين السماء بعد ما بين السماءين ، ثم قال : هل تدرون ما الذى تحتكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنها الأرض ، ثم قال : هل تدرون ما تحت ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإن تحتها الأرض الأخرى بينهما مسيرة خمسمائة سنة حتى عدّ سبع أرضين بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة ، ثم قال : والذى

---

(١) راجع : صحيح البخارى – كتاب المظالم – باب من ظلم شيئا من الأرض ١٠٠/٣ ، كتاب بدء الخلق باب ما جاء فى سبع أرضين ٧٣/٤ طبع المكتبة الإسلامية – استنابول ، صحيح مسلم – كتاب المساقاة – باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها ١٢٣٠/٣ – ١٢٣٢ .

(٢) راجع : الجامع لأحكام القرآن – القرطبى ١٧٥/١٨ .

نفس محمد بيده لو أنكم دليتم بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله »[1] .

وبعد : فحسب هذه النصوص – قرآنية وغيرها – فى إجمالها الجليل وإيحائها الدقيق أن دعت البشرية من وراء القرون إلى تتبع الخبر القرآنى عن سبعية السماوات ومثلها من الأرض ، وإن كانت البشرية إلى ذلك الحين قد جهدت كثيراً ولما تصل بعد إلى حقيقة ما أجمله الله فى كتابه العزيز ولكنها ماضية فى النظر يحدوها الأمل ، وتدفعها دعوة القرآن الكريم حثيثاً ، فإذا هى لا تألو جهداً ولا تدخر وسعاً فى كشف أسرار الكون وما أودع الله فيه من نواميس وآيات ، وسن فيه من سنن وأحكام حتى يتبين لهم أنه الحق ، ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ (النمل ٩٣) .

أما ما تحويه السماوات من احتمال وجود أنواع من الحياة على شاكلة الحياة فى كوكب الأرض فإن أمامنا آيتى سورتى الشورى والنحل السابقتين ، وهما تشيران إلى وجود هذه الحياة الموصوفة بدبيب صاحبها وحركته ، فإذا أضفنا إلى ذلك إشارات بعض الأحاديث فى الصحيح[2] من وجود دواب فى السماء تكون منها مراكب أهل الجنة – كان لنا أن نتوقف أمام إشارات هذه النصوص التى يتهداها العلم فى مسيرته نحو اكتشاف هذا الأمر الذى قرره القرآن الكريم من وراء القرون ، ولم تكن لمحمد ﷺ بطبيعة الحال وسائله التى تمكنه من الاطلاع على هذه الحقيقة الكونية ، اللهم إلا أن تكون هذه الوسائل هى المعرفة الإلهية التى زود بها يقيناً مكتوباً موحى به إليه ثم أراه الله بعضاً منه عياناً فى عروجه إلى السماوات العلى .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٥٩/١ ، تفسير القرآن العظيم ٣٠٣/٤ ، التبيان فى أقسام القرآن – ابن القيم ص ١٨٠ طبع لبنان دون تاريخ ، تصحيح طه يوسف شاهين ، سنن الترمذى – أبواب التفسير – سورة الحديد ٧٧/٥ .

(٢)راجع حديث الإسراء الذى رواه ابن عباس فى صحيح مسلم – كتاب الإيمان – باب الإسراء ١٥٢/١ – ١٥٣ ، وانظر : روح المعانى – الألوسى ٤٠/٢٥ .

ولكن ماذا فعل المفسرون من قبل حيال هذه الآيات المعجزة ؟ لقد جاء فهم المفسرين القدامى لهذه الآيات فى حدود معارفهم ووقفوا عند هذه الحدود فضيقوا فى متعلق بث الله للدواب وقصروه على الأرض وحدها عندما قالوا : إن المراد بالبث فيهما أى فى مجموعهما ؛ إذ لم يعرف إلى عهدهم من دواب إلا فى هذه الأرض من جهة ، ثم لاستبعادهم وصف الملائكة بما يوصف به أحياء الأرض من الحركة الثقيلة والدبيب المعروف وأجروا الأمر على غرار قوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجَانُ ﴾(الرحمن ٢٢) على ما فى هذا التنظير من نظر[١] .

أما من ارتقى من المفسرين عن هذا الفهم فقد ضمن الآية احتمال أن يكون المبثوث فى السماوات من دواب هم الملائكة على تفسير الدبيب بمعنى الحركة مطلقاً ، فتكون للإنس فى الأرض ثقيلة وللملك فى السماء خفيفة ، ويجوز أن يكون للملائكة مشى كالطيران ، وقد نسب هذا الرأى لمجاهد بن جبر من التابعين وقد ارتضاه الحافظ ابن كثير[٢] ، وفى رأى ثالث أن المراد بالدابة الحىّ مطلقاً على سبيل المجاز[٣] .

---

(١) يعنى المفسرون تنظيرهم فى الآية على المعرفة القديمة من أن اللؤلؤ يخرج من المياه المالحة فحسب ، وعليه فإن قوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ﴾ - أى الماء المالح والماء العذب - يعنى خروجه من مجموعهما وهذا صادق بخروجه من أحدهما وهو المالح دون الآخر وهو العذب ، ومثله ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ ولكن القرآن الكريم يقطع بخروج اللؤلؤ والمرجان من المياه العذبة كذلك ، وقد أكد العلم ذلك باكتشاف العلماء وجود اللآلىء فى المياه العذبة فى انجلترا واليابان وغيرهما من بلدان العالم ، قال تعالى : ﴿وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِياً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ... ﴾ (فاطر ١٢) راجع : ظواهر جغرافية ص ٢١١ ، الجواهر فى تفسير القرآن الكريم ١١/٢٠ ، ٢٦/٢٤ .

(٢) راجع هنا : مفاتيح الغيب ١٧١/٢٧ ، تفسير القرآن العظيم ١١٦/٤ ، روح المعانى ٣٩/٢٥ .

(٣) إما من استعمال المقيد فى المطلق أو إطلاق الشىء على لازمه أو المسبب على سببه ؛ لأن الحياة سبب للدبيب وإن لم يكن الدبيب سببا للحركة فيكون مجازا مرسلا تبعيا . راجع : روح المعانى ٤٠/٢٥ .

وهذه الأفهام والتفسيرات دون ما تحويه الآية من معنى الدواب المبثوثة فى السماوات والأرض ؛ لأن أول هذه التفسيرات يخرج اللفظ ﴿فِيهِمَا﴾ عن ظاهره المتبادر دون دليل ، ويمنع فهمه على ظاهره دون مانع حقيقى ، وثانيهما يسمح بوصف الملائكة – وهم عباد الله المقربون – وتسميتهم بما هو غير معهود عنهم فى القرآن الكريم والسنة النبوية ، وهما وحدهما مصدرا الحقيقة عن عالم الملائكة ، وثالثهما عدول عن الحقيقة والظاهر ، ولا يعدل عن هذين إلا إذا دل دليل على خلافهما ولا يوجد هذا الذليل ؛ بل الأمر قائم على وجود الدواب فى السماء كما هى موجودة فى الأرض وهو ظاهر الآية[١] .

هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فإن أيا من هذه التفسيرات الثلاثة يتجاهل قاعدة تفسيرية مهمة هى ضرورة تفسير ما أجمل من آى القرآن الكريم بما فصل من آيه فى موضع آخر ، وفى هذا الموضوع نجد من الآيات القرآنية ما يفصل الإجمال فى آية سورة الشورى السابقة ، ويذهب بهذه التأويلات بعيداً عن مفهوم الآية ، وينبئنا بما يؤكد الظاهر من لفظ آية الشورى ولو كان ذلك مجهولاً للناس لم يعرفوه بعد ، فقوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (النحل ٤٩) ، يأتى فيه ذكر اسم الموصول ﴿مَا﴾ مرتين يتعلق فى إحدهما بالسماء وفى الأخرى بالأرض ليذهب – سبحانه وتعالى – بكل شك فى أن قوله : ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ فى آية سورة الشورى وكذلك فى آية سورة النحل بيان لما فى السماء ولما فى الأرض كلتيهما وليس بياناً لمجموعهما – كما جاء فى الفهم الأول – ثم يكون ذكر الملائكة بعد ذلك فيمن يسجد مانعاً من تأويل دواب السماء بالملائكة عند من لا يدركون أن الملائكة – وهم عباد مكرمون – لا يليق بهم أن يعبر عنهم بالدواب – كما هو الفهم الثانى – ثم يكون عطف الملائكة – بما لهم من حياة روحية غير طينية – على الدواب بما عرف لهم من

---

(١) راجع [illegible]

الحياة الطينية مانعا من كون الدبيب مرادا به الحياة على سبيل المجاز – كما ذهب الفهم الثالث ، وقد فات هؤلاء جميعاً أن يتذكروا أن هناك ست أرضين أخرى أخبرهم الله بها فى السبع المذكورة فى الآية الأخيرة من سورة الطلاق ، فيمكن إذن أن يكون فى بعضها حياة ودواب وتصدق آية سورة الشورى على الطرفين كليهما المتحدث عنهما[1] .

على أن من الإنصاف هنا أن نذكر من المفسرين من التزم فى فهم الآية ظاهرها الذى تدل عليه دون أن يذهب فى تأويلها إلى غير ما تدل عليه ، يقول الفخر الرازى : « لا يبعد أن يقال إن الله تعالى خلق فى السماوات أنواعاً من الحيوانات يمشون مشى الأناسى على الأرض »[2] ، ويقول الألوسى : « لا يبعد أن يكون فى كل سماء حيوانات ومخلوقات على صور شتى وأحوال مختلفة لا نعلمها ، ولم يذكر فى الأخبار شىء منها ، فقد قال تعالى : ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل ٨) ، وأهل الأرصاد اليوم يتراءى لهم بواسطة نظاراتهم مخلوقات فى جرم القمر لكنهم لم يحققوا أمرها لنقص ما فى الآلات على ما يدّعون[3] ، ويحتمل أن يكون فيما عدا القمر ، ونفى ذلك ليس من المعلوم من الدين بالضرورة ليضر القول به » ، وبعد أن ينقل كثيراً من التأويلات الرافضة لظاهر الآية – استبعاداً من أصحابها لهذا الظاهر المتبادر – يعقب عليها بقوله : « ... ولا يعدل عن الظاهر إلا إذا دل دليل على خلافه وأين ذلك الدليل ؟ بل هو – أى ظاهر الآية – قائم على وجود الدواب فى السماء كما هى موجودة فى الأرض »[4] .

---

(١) راجع : الإسلام فى عصر العلم ص ٢٥١ .

(٢) راجع : مفاتيح الغيب ١٧١/٢٧ .

(٣) أحسن الألوسى صنعا بهذا الاحتراس فلم يجزم بشىء فى هذه الرؤى التى أثبتت رحلات الفضاء أنها محض خيال ورؤى حالمين .

(٤) راجع : روح المعانى ٤٠/٢٥ .

فالآيتان الكريمتان تنبئان البشرية إذن بما تجهله إلى الآن وإن حدثت نفسها به فى عصر الفضاء ، ثم تضيف آية الشورى إمكان جمع دواب السماء ودواب الأرض إذا تعلقت بذلك مشيئة الله فى عليائه فما ذلك على الله بعزيز ولا هو خارج سلطان قدرته وهو على كل شيء قدير[1] .

أما عن طبيعة سكان الكواكب الأخرى فلم يصل العلماء بعد إلى أنواع الجزيئات التى يمكن أن تقوم عليها حياة هؤلاء السكان تلك الحياة التى تختلف كيمياؤها عن كيمياء الكربون الذى تقوم عليه حياة سكان الأرض ، إنما يعتمد العلماء فحسب على التقارب والتشابه وعدم التفاوت فى أساليب الطبيعة عندما تتوافر الظروف الملائمة للحياة فى أى كوكب ، ومن العبث بعد ذلك قصر ملكوت الله من الكائنات الحية المفكرة التى فيه على البشر سكان الأرض ، وليس لهذا القصر من دليل سوى أننا لم تتح لنا فرصة زيارة السماوات أو الاتصال الفعلى بسكانها ، ولكننا إذا ما لجأنا إلى حساب الاحتمال الرياضى أو عولنا على ما أنبانا به القرآن الكريم وجدنا أن السماوات تعج بالسكان وأنه لا حدود لملكوت الله نستطيع أن نلمسها[2] .

ومهما يكشف العلم من حياة فى غير كوكب الأرض فهو إنما يحقق معجزة علمية للقرآن الكريم تتجدد بها الحجة وتزداد بها الدلائل دليلاً على أن القرآن الكريم من عند الله ، فلا يحتاج العالَم إلى الإيمان بالقرآن الكريم – بعد توفيق الله وهدايته – إلا إلى نفر من المسلمين يحسنون عرض مثل هذه الآيات

---

(١) يذهب المفسرون إلى أن جمع دواب السماء والأرض يكون يوم القيامة بجمع الأولين والآخرين وسائر الخلائق فى صعيد واحد ، وفيما ذهبوا إليه تقييد لمشيئة الله فى الجمع بيوم الحساب فحسب ، وهذا مخالف للظاهر من إطلاق المشيئة وسياق الآيات الذى يجرى كله على إرشاد الخلق إلى دلائل قدرة الله ووحدانيته ، وهذان لا حاجة للإنسان بهما فى عالم الحق ، إنما مجال إفادة الإنسان والاتعاظ بهما إنما هو الدنيا ، والعلم عند الله تعالى . راجع : ابن كثير ١١٦/٤ ، الرازى ١٧٢/٢٧ ، الألوسى ٤٠/٢٥ .

(٢) راجع : الله والكون ص ٤١٣ – ٤١٧ .

القرآنية على العلماء والمثقفين فى أقطار المسلمين[١]، ولتتيقن البشرية بأن ابنها الإنسان ليس هو الكائن المفكر الوحيد فى هذا الوجود ، وأن هذه الأرض ليست الكوكب الوحيد الآهل بالسكان ، وإنما توجد كواكب أخرى أقدم من هذه الأرض وتعج بسكان يتمتعون بحضارة أعرق تقدماً من حضارة إنسان الأرض الذى تبين أنه مجرد كائن صغير على كوكب عادى من بين ملايين الكواكب الأخرى الآهلة بالسكان[٢].

---

(١) راجع : الإسلام فى عصر العلم ص ٢٥٢ .
(٢) راجع : الله والكون ص ٣٠٣

المبحث الثانى
الحقائق القرآنية حول الكواكب

نحاول فى الوقفات التالية أن نتدبر أمر الله الصادر إلينا بقوله تعالى : ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (يونس ١٠١) ، ونحقق هذا الأمر لنضع أيدينا على آيات الله وسننها الضابطة لها حتى يتحقق لنا الانتفاع الحقيقى بجميع ما فى السماوات والأرض والتسخير الذى أراده الله وأشار إليه فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا انَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ... ﴾ (لقمان ٢٠) .

ولا يمنع المسلم من النظر والتدبر عدم معرفته بكثير من جوانب هذه الآيات التى أصبحت لها علوم مستقلة ما دام القرآن الكريم قد عرض لأصولها ، ودعا الناس جميعاً – كل على قدر طاقته – إلى التدبر والتأمل ، وعلى المرء إذا أراد أن يعرف جانباً من عظمة الله تعالى فعليه أن يتأمل نفسه أولاً على هذه الأرض ، ثم يفكر فى الأرض باعتبارها من أصغر كواكب المجموعة الشمسية ، ثم يفكر فى المجموعة الشمسية كلها باعتبارها جزءاً ضئيلاً من المجرة ، وأخيراً يفكر فى مجرتنا باعتبارها واحدة من ملايين غيرها فى هذا الكون بمفهومه الواسع .

وقد يظن البعض أن مظاهر الكون الكبرى لا أهمية لها كثيراً بالنسبة لحياتنا العملية ، وأنه إذا فنى كل شىء فى الوجود ما عدا الأرض والشمس والقمر فلن يضيرنا ذلك فى شىء – فلقد أثبت التقدم فى علم نظام الكون خطأ

هذا الظن ، وأن أحوال الناس اليومية لا يمكن أن تستمر - كما هى - لولا وجود أجزاء الكون البعيدة ، « وأحد مظاهر العناية الإلهية ما عرف من أن عدد الأجرام السماوية التى تسبح فى الفضاء يعادل عدد ذرات الرمال فى جميع شواطىء البحار التى فى المعمورة ، وهى فى مجرتنا وحدها تصل إلى مائة بليون نجم ، وبالرغم من هذا العدد الضخم فإن احتمال الاصطدام بين هذه النجوم كاحتمال اصطدام مركب يسير فى البحر المتوسط مع آخر يسير فى المحيط الهادى ، وذلك لما بينهما من مسافات شاسعة »[1] .

وإذا ما بدأنا النظر والتدبر فى أفراد مجموعتنا الشمسية الظاهرة والتى تقوم الحياة فى الأرض على آثارها المباشرة كالشمس وتابعيها الأرض والقمر ، وقصرنا نظرنا على موضع اهتمامنا الأول وهو ما جاء فى آياتها القرآنية من إعجاز علمى لم تعرفه البشرية إلا بعد قرون عديدة من نزول القرآن الكريم - فماذا نحن واجدون من الإعجاز القرآنى حول هذه الثلاثة ؟ .

---

(١) راجع : ظواهر جغرافية ص ٢٢ .

الأرض (شكلها وحركتها)

أول من فكر فى شكل الأرض وانتهى إلى كرويتها عالم يونانى مصرى يدعى (أراتوستانس) ولد بالقيروان قبل قرنين ونصف من الميلاد ودرس بالأسكندرية وأثينا وألف كتاباً فى معرفة جرم الأرض ، وأظهر دلائله على كروية الأرض ظهور ظل للأشياء يتجه شمالاً وقت الظهيرة فى بلد كالأسكندرية مثلاً وانعدام هذا الظل تماماً فى ذات الوقت ونفس اللحظة فى بلد كأسوان ، ثم غياب بعض النجوم تدريجياً وظهور أخرى كذلك مما يشاهده المسافر من شمال الأرض إلى جنوبها[1] .

وامتثالاً لدعوة القرآن الكريم إلى النظر فى ملكوت السماوات والأرض كانت إسهامات علماء المسلمين فى علوم الفلك والفضاء والكواكب ، وأضافوا بجهودهم ما اعتبر - بحق - أساساً للنهضة العالمية الحديثة فى هذه الميادين ، وعدلوا كثيراً من نظريات سابقيهم من علماء اليونان والمصريين القدماء ، بل كانوا أول من أنشأوا المراصد الفلكية فى العالم ، واكتسبت مراصد بغداد والقاهرة وقرطبة وغيرها شهرة فائقة ، ودرس المسلمون خسوف القمر وكسوف الشمس ومظاهر فلكية أخرى ، وقالوا بكروية الأرض وأنها قائمة فى الفضاء ، وقاسوا أبعاد الشمس والقمر والنجوم بطرق هندسية حسابية ومدى أبعادها عن سطح الأرض .

ولثابت بن قرة والحسن بن الهيثم وأبى الريحان البيرونى - الذى عاش فى بلاط الغزنويين - آراء علمية فى تقدير محيط الأرض ، وقياسات أخرى

---

(١) راجع : الجواهر فى تفسير القرآن الكريم ٢١/٦ .

متعددة ما زالت معتمدة حتى الوقت الحاضر ، وقد أخذ عنه الغربيون الشيء الكثير ، ونظريته فى استخراج طول محيط الأرض وقطرها ونصف قطرها ما زالت عندهم حتى الآن وتعرف لديهم بقاعدة البيرونى[1] ، كما يشار هنا بصفة خاصة إلى أعلام العلماء كابن شاكر فى عصر المأمون وأبى الحسن المراكشى فى القرن الثامن ، وابن يونس مخترع المزولة ومؤسس مدرسة القاهرة فى الرصد والفلك .

ومن أهم علماء الفلك الإسلاميين ابن قتيبة الدينورى واضع كتاب الأنواء والنجوم وكيفية استدلال العرب بها ، والشيخ نصير الدين الطوسى الذى راقب النجوم ورصدها بمراصد مراغة فى مصر ، وصحح أخطاء اليونانيين وانحرافات بطليموس التى لا تتفق مع العلم الصحيح[2] .

وقد أفاض فى علم الهيئة (قديمها وحديثها) العلامة عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد (ت ٧٥٦ هـ) فى كتابه « المواقف » وأورد على دوران الأرض اعتراضات ثلاثة ثم كر عليها بالنقض والرد ، وتابعه على ذلك شارحه الشريف على بن محمد الجرجانى (ت ٨١٦ هـ)[3] .

ويمكن تلخيص معطيات هؤلاء وغيرهم من علماء الهيئة المحدثين مثل « كبلر » و « كوبر نيكس » حول الأرض من حيث شكلها وحركتها – فى أن الأرض من الكواكب السيارة التى تدور حول نفسها أمام الشمس بدورة يومية ينتج عنها تعاقب الليل والنهار ، ودورة سنوية حول الشمس ينتج عنها تعاقب الفصول الأربعة ، وهى الكوكب الخامس من حيث الحجم فى مجموعة الكواكب القريبة ، والثالث من حيث قربها من الشمس ، وهى بيضوية الشكل منبعجة عند خط الاستواء ومفرطحة عند القطبين ، ونصفها الجنوبى

---

(١) راجع : الله والكون ص ٨٧ .
(٢) الله والكون ص ٦٦ – ٩٦ .
(٣) الجواهر فى تفسير القرآن الكريم ٢٤،٦ .

ناتىء أكثر من نصفها الشمالى ، فيبدو شكلها كالأجاصة أو الدحية ، وإن كانت لا تظهر لسكانها مستديرة بل مسطحة ومنبسطة لكبر حجمها الذى يسهل معه حركة الإنسان عليها والمشى فى مناكبها لتذللها للإنسان بهذا التسطح والانبساط الذى يمكن معه إقامة المنشآت والبناءات الهندسية وغيرها مما يصعب القيام به معْ صغر حجم الأرض وظهور تكورها .

ويقدر العلماء طول قطر الأرض المار بالقطبين بحوالى سبعة آلاف وتسعمائة ميلاً ، وقطرها الاستوائى بتسعة آلاف وسبعمائة وعشرين ميلاً ، ومحيطها عند القطبين بأربعة وعشرين ألفا ومائتين وعشرين ميلاً ، ومحيطها حول خط الاستواء بأربعة وعشرين ألفاً وتسعمائة ميلاً ، ومساحة سطحها بمائتى مليون من الأميال المربعة ، يشغل اليابس منها نحو خمسين مليون ميلاً مربعاً والماء حوالى مائة وخمسين مليون ميلاً مربعاً ، وهى معلقة فى الفضاء كغيرها من الكواكب الأخرى[1] ، فماذا يصدق القرآن الكريم من هذه الحقائق العلمية المترابطة والمتكاملة ؟ :

يقول الله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ *أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾(الأعراف ٩٧–٩٨) ؟ ، ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (يونس ٢٤) ، ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ (الزمر ٥) ، ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾

---

(١) راجع : ظواهر جغرافية ص ١٠٣ – ١٠٤ ، لله العلم – بشير التركى ص ١٣٥ .

(النازعات ٣٠) ، ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (الرعد ٤١) ، ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (الأنبياء ٤٤) ؟

تتضمن هذه الآيات القرآنية إشارات مجملة إلى كروية الأرض ، وتتأيد هذه الإشارات بأن الآيات لا يمكن فهمها على ظاهرها إلا بتقريرها لهذا المعنى الكرى للأرض ، فبأس الله وعذابه الشديد فى آيتى سورة الأعراف حين ينزل بأهل القرى – كل القرى[1] – فى الليل حال البيات وهم نائمون ، كيف يمكن أن يتأتى لأهل القرى أنفسهم وهو هو نفس بأس الله وعذابه الشديد فى الوقت نفسه وهم فى وضح النهار وضحاه يلهون ويلعبون ؟ هل تضرب آيات القرآن الكريم – فى نفس السياق – بعضها بعضاً ، وهو كلام الحكيم الخبير ؟ أيكون نزول البأس على الاختيار فى هذا الوقت أم ذاك ؟ أم أن الأولى أن يكون هذا العذاب نفسه على القوم بأعينهم فى الوقتين معاً ويتوزع على الناس وأهل القرى بحسب أحوالهم القائمين عليها أثناء نزول العذاب ، فمنهم من يكون فى البيات نائماً ومنهم من يكون فى ضحى النهار لاعباً ؟[2] وهل يعنى هذا شيئاً آخر غير أن يكون بعض أهل القرى وقراهم فى مقابلة الشمس نهاراً ، وبعضهم الآخر ومعهم قراهم مستدبرين هذه الشمس ليلاً ؟ .

---

(١) رأى كثير من المفسرين أن المراد بالقرى هنا قرى الأقوام الكافرة ، أو مكة وما حولها ، كما رأى غيرهم أن المراد بها كل القرى ، وحملها على هذا العموم أولى . راجع : الجامع لأحكام القرآن – القرطبى ٢٥٣/٧ ، فتح القدير – الشوكانى ٢٢٨/٢ .

(٢) أفاد هذا المعنى قراءة جمهور القراء ﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى ... ﴾ بواو العطف قبلها همزة الاستفهام كقوله تعالى : ﴿ أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ .... ﴾(البقرة ١٠٠) ، كما أفاد المعنى الأول قراءة ابن عامر والحرمين ﴿أَوْأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى ... ﴾ بإسكان الواو للعطف على معنى الإباحة والاختيار مثل ﴿ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾ (الإنسان ٢٤) راجع : الجامع لأحكام القرآن ٢٥٣/٧ ، فتح القدير ٢٢٨/٢ .

وإشارة آية سورة يونس قد تكون أكثر وضوحاً من ذلك ؛ إذ إن المعنى فيها أن أمر الله إذا أتى وشاعت إرادته إهلاك الأرض ومن عليها بعد ظن أهلها الاقتدار عليها فإن ذلك سوف يحدث ويكون ليلاً أو نهاراً[1] ، وتدمير الأرض – كل الأرض – لا يمكن أن يكون فى أحد الزمنين دون الآخر إذا آثرنا المعنى الاختيارى للفظ ﴿ أو ﴾ ، إنما يكون فى الزمنين معاً على التوزيع[2] ، حيث يحدث هذا الإهلاك والتدمير وبعض من الناس في جزء من الليل على هذه الأرض ، وبعضهم الآخر فى جزء من النهار على نفس هذه الأرض ، فالليل والنهار موجودان على الأرض فى نفس اللحظة – لحظة التدمير – كما هما موجودان فى كل وقت وحين من يوم فطرها الله إلى حين يرثها ومن عليها ، ومعنى هذا كله أن الأرض كروية لا مراء فى ذلك .

ويتردد فى القرآن الكريم وصف الأرض بأنها محدودة ومبسوطة ومسطحة ، والمراد أنها وإن كانت كروية الشكل فإنها تبدو للناظرين مسطحة مبسوطة ، وهذا لا يخالف ما قرره العلم فى شىء ، يقول ابن قيم الجوزية فى تعداد نعم الله وآياته فى هذه الأرض : « ... ومنها تسطيحها كما قال تعالى : ﴿ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ (الغاشية ٢٠) ، ولا ينافى ذلك كونها

---

(١) وقد أرهص بعض المفسرين بإشارة الآية إلى معنى الفناء الأرضى ، وتعرضها لآية كونية فى الأرض ، يفصلها الله فى هذه الآية كما يفصل غيرها من الآيات الكونية ، يقول القرطبى : « معنى الآية التشبيه والتمثيل أى صفة الحياة الدنيا فى فنائها وزوالها وقلة خطرها والملاذ بها ... » ويقول الشوكانى : « ... كذلك نفصل الآيات ، أى مثل ذلك التفصيل البديع نفصل الآيات القرآنية – التى منها هذه الآية – ويجوز أن يراد الآيات التكوينية » . راجع : الجامع لأحكام القرآن ٣٢٧/٨ ، فتح القدير ٤٣٨/٢ .

(٢) لحظ الزركشى هذا المعنى للفظ « أو » الذى يخرجه عن الشك والاختيار إلى الإبهام وإخفاء الأمر على السامع مع العلم به قال : « يريد – الله – إذا أخذت الأرض زخرفها وأخذ أهلها الأمن أتاها أمرنا وهم لا يعلمون أى فجأة ، فهذا إبهام لأن الشك محال على الله تعالى كقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (سبأ ٢٤) . راجع : البرهان فى علوم القرآن – الزركشى ٢٠٩/٤ طبع لبنان ١٩٧٢م . تحقيق محمد أبو الفضل .

كرية ، فهى كرة فى الحقيقة لها سطح يستقر عليه الحيوان »[1] .

ويقرر ابن القيم هنا أن كرية الأرض هى من ضمن الآيات التى لا يفتأ الإنسان يكتشفها من وقت إلى آخر ليصدق الله رسله فيما أخبر به من آيات الكتاب الكريم ، ولا تزال آيات الرسل وأعلام صدقهم وأدلة نبوتهم يحدثها الله سبحانه وتعالى فى الأرض إقامة للحجة على من لم يشاهد تلك الآيات التى قاربت عصر الرسل حتى كأن أهل كل قرن يشاهدون ما يشاهده الأولون أو نظيره كما قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ... ﴾ (فصلت ٥٣) ، وهذه الإراءة لا تختص بقرن دون قرن ؛ بل لا بد أن يُرى الله سبحانَه أهل كل قرن من الآيات ما يبين لهم أنه الله الذى لا إله إلا هو ، وأن رسله صادقون ، وآيات الأرض أعظم مما ذكر وأكثر ، فنبه باليسير منها على الكثير[2] ، وصدق الله ﴿ لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (الأنعام ٦٧) ، ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ (ص ٨٨) .

ويقول ابن حزم فى مطلب كروية الأرض : « إن أئمة المسلمين المستحقين لاسم الإمامة فى العلم لم ينكروا تكوير الأرض ، ولا يحفظ لأحد منهم فى دفعه كلمة ، بل البراهين من القرآن الكريم والسنة النبوية قد جاءت بتكويرها ، قال تعالى : ﴿ ... يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ... ﴾ (الزمر ٥) ، وهذا أوضح بيان فى تكوير بعضها على بعض مأخوذ من كور العمامة وهو إدارتها ، ... ويستطرد ابن حزم فيسوق لنا دليلاً عجيباً على كروية الأرض إذ يقول : « قد علمنا أن صلاة الظهر لا تجوز إلا إذا زالت الشمس ومالت عن كبد السماء من الشرق إلى الغرب ، ويلزم

---

(١) راجع : التبيان فى أقسام القرآن ص ١٨٥ .
(٢) السابق ص ١٨٩ - ١٩٠ .

من قال أن الأرض منتصبة غير مكورة أن كل من كان ساكناً فى أول المشرق أن يصلى الظهر فى أول النهار ضرورة ولا بد إثر صلاة الصبح بيسير ؛ لأن الشمس بلا شك تزول عندهم أول النهار على ما يقولون ، ولا يحل لمسلم أن يقول إن صلاة الظهر تجوز أن تصلى قبل نصف النهار ، ويلزمهم أيضاً أن من كان ساكناً فى آخر المغرب أن الشمس لا تزول عندهم إلا آخر النهار فلا يصلون الظهر إلا فى وقت لا يتسع لصلاة العصر حتى تغرب الشمس ، وهذا كله خارج عن حكم دين الإسلام ، وأما من قال بتكويرها فإن كل من على ظهر الأرض لا يصلى الظهر إلا إثر انتصاف نهاره أبداً على كل حال فى كل زمان وفى كل مكان ، وهذا بيّن لا خفاء فيه »[1] .

ويصرح شيخ الإسلام ابن تيمية – فى الكلام على الإحاطة والكرية والجهات – باتفاق العلماء على كروية الأرض فيقول : « اعلم أن الأرض قد اتفقوا على أنها كرية الشكل ... وليس تحت وجه الأرض (سطحها) إلا وسطها ، ونهاية التحت المركز ، فلا يكون لنا جهة بينة إلا جهتان العلو والسفل ... فعلو الأرض وجهها من كل جانب ، وأسفلها ما تحت وجهها – ونهاية المركز – هو الذى يسمى محط الأثقال ، فمِن وَجه الأرض والماء من كل وِجْهة إلى المركز يكون هبوطاً ، ومنه إلى وجهها صعوداً ، وإذا كانت سماء الدنيا فوق الأرض محيطة بها – فالثانية كرية وكذا الباقى ... والأفلاك مستديرة بالكتاب والسنة والإجماع ، وأهل الهيئة والحساب متفقون على ذلك »[2] .

ثم يعرض الشيخ لهذه الكرية فى الرسالة العرشية بالمفهوم لا بالمصادق ، يقول : « فمن المعلوم باتفاق من يعلم هذا أن الأفلاك مستديرة كرية الشكل ،

(١) راجع : الفصل فى الملل والأهواء والنحل – ابن حزم الظاهرى ٧٨/٢ – ٧٩ طبع الخانجى بالقاهرة دون تاريخ .

(٢) راجع : مجموع فتاوى شيخ الإسلام (الأسماء والصفات) ١٥٠/٥ طبع مؤسسة الرسالة – بيروت ، نشر دار الإفتاء بالرياض ١٣٩٨هـ.

وأن الجهة العليا هى جهة المحيط وهو المحدب ، وأن الجهة السفلى هى المركز »[١].

وبعد كلام طويل عن جهات الأفلاك واستدارتها والفوقية والتحتية الإضافية فيها يقول : « وهذا أمر لا يتنازع فيه اثنان ممن يقول إن الأفلاك مستديره ، واستدارة الأفلاك كما أنه قول أهل الهيئة والحساب فهو الذى عليه علماء المسلمين كما ذكره أبو الحسين بن المنادى وأبو محمد بن حزم وأبو الفرج ابن الجوزى وغيرهم أنه متفق عليه بين علماء المسلمين »[٢].

وهذا الذى نقلناه عن كروية الأرض من العلماء الأثبات – ابن تيمية وابن القيم وابن المنادى وغيرهم – هو الذى انتهى إليه وقرره أمثالهم من العلماء المحدثين ، فبعد أن ينقل الشيخ ابن باز حكاية إجماعهم على هذه الكروية يقول : « وكونها كرية لا ينافى تسطيح وجهها المسكون للعالم وجعلها فراشاً ومهاداً ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً ﴾ (البقرة ٢٢) ، ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً ﴾ (النبأ ٦) ، فهى كروية الشكل مسطوحة الوجه البارز للعالم ليتم قرارهم عليها وانتفاعهم بما فيها ،

---

(١) أى مركز الوسط من الداخل وهو القعر الذى تكون جوانب المحيط بالنسبة إليه متساوية إذا كان المحيط متساويا كمحيط الفلك عندهم ؛ لأنه كرة تامة ، وسنعرف بعد أن كرية الأرض غير تامة بالمعنى الهندسى ؛ لأن فى محيطها تسطيحا وانبطاحا من جانبى قطبيها الشمالى والجنوبى ، فمركزها أقرب إليهما منه إلى سطح الأقاليم الاستوائية ، راجع : رسالة عرش الرحمن ص ١٩ تحقيق وتعليق رشيد رضا – نشر فيصل أباد باكستان ١٤٠٣ هـ .

(٢) زاجع : الرسالة العرشية ص ٢١ ، ويعلق رشيد رضا على قول ابن تيمية بما يبرر ذلك المفهوم فيقول : « كل ما قاله شيخ الإسلام فى الأرض فهو مبنى على كونها كرة ، كما جزم به علماء الهيئة المتقدمون والمتأخرون ومن اطلع على هذا العلم وفهمه من علماء الإسلام الأعلام ، وهذه مسألة قطعية لا ظنية ، وصرح بها ابن القيم بالتبع لأستاذه المؤلف ، وللإمام ابن حزم ، واقتناعا بأدلتها ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ ﴾ ، فإن التكوير هو اللف على الجسم الكرى المستدير كتكوير العمامة على الرأس ، وكذا قوله تعالى : ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ فإن الدحو فى اللغة دحرجة الكرة وما فى معناها ، ولا يعارضه قوله تعالى : ﴿ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ كما توهم الجلال وغيره ؛ لأن وجه الكرة سطح لها ، والسطح فى اللغة أعم منه فى عرف أهل الهندسة » الرسالة العرشية ص ٢٠ .

ولا نعلم فى الأدلة النقلية والحسية ما يخالف ذلك »[1] .

« على أن الكروية التى عليها الأرض – والتى ما وصفت بالكوكبية إلا لتكويرها ، واستدارتها شأنها شأن الكواكب الأخرى – ليست كاملة الاستدارة والتكوير بالمعنى العلمى الحقيقى الذى تتساوى فيه أقطار الدائرة المارة بمركزها ، والواصلة فى استقامة بين نقطتين متقابلتين على محيطها – وإنما دلت قياسات العلماء للأرض وتصورهم لها بعد دخول البشرية عصر الفضاء على نقصان هذه الاستدارة فى بعض جوانب الأرض ، وأصدق وصف علمى لشكل الأرض أنها مدحوة كالبيضة ، أو أنها كالكرة المنبعجة من الوسط ، وهذا هو نفس ما انتهى إليه العلماء من أن قطبى الأرض مختلفان فى الصلابة ، وأن أحدهما أكثر سيولة من الآخر ، وبدوران الأرض – الذى تستلزمه كرويتها – حول نفسها يكون الصلب أكثر استدارة من الآخر ، وعليه فإن شكل الأرض يشبه البيضة تماماً »[2] .

فهل هذا الذى قرره العلماء بعيد عن معنى الآية الكريمة ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ ؟ أم أن الدحو هو التكوير بعامة ، والدحية فى اللغة البيضة وما زالت كثير من البلاد العربية تعرف البيضة باسم الدحية ، فكأن الله تعالى يحدد شكل الأرض الكروى بالبيضة ، ولا يختلف هذا الشكل لها عما وجدها عليه رواد الفضاء ، فبعد أن خرجت الأقمار الصناعية وجاوزت أجواء الأرض وصورتها من خارجها أعلنت الجهات العلمية أن الأرض أشبه بحبة الكمثرى وأن أقرب الأشكال إليها هو شكل البيضة فلا هى بالمفرطحة كثيراً ولا هى بالمكورة تكويراً تاماً ، إنما هى أقرب ما تكون إلى شكل البيضة[3] .

(١) راجع : الأدلة النقلية والحسية على جريان الشمس – ابن باز ص ٦٧ طبع الرياض دون تاريخ .

(٢) راجع : ظواهر جغرافية ص ٤٧ .

(٣) راجع : ظواهر جغرافية ص ٤٧ .

أما موقف المفسرين حيال هذه الكروية وما رأوه فى الآيات المشيرة إليها فلم تطل وقفتهم أمام هذه الآيات بالتدبر والتأمل ، وليس هناك من بأس فى ذلك ، فحيث تفوت على بعضهم تلك الإشارات ينتبه إليها غيرهم ، وإذ تغمض تلك الإشارات على بعضهم فى آية تتضح لهم فى غيرها ، ومن هنا وجدنا واحداً كالفخر الرازى يلفت النظر إلى معنى هذه الكروية فى الأرض وهو بصدد تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴾ (النازعات ٣٠) ، ثم يجيب عن استشكال كون الأرض كالكرة مع مدها وبسطها بقوله : ﴿ فإن قيل إن الدلائل الاعتبارية دلت على أن الأرض كرة أيضاً - يعنى فكيف تكون كذلك وهى أمامنا ممدودة مبسوطة ؟ - قال : « إن الجسم الكروى إذا كان عظيماً كالأرض يكون ظاهره كالسطح المستوى ، ويمكن أن يكون معنى الدحو هنا ليس عموم البسط ، إنما هو بسط مخصوص تتهيأ به الأرض لنبات الأقوات ، وهو الذى عناه الله بقوله بعد دحى الأرض ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾[1] .

ويوضح الفخر المسألة عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَاراً ... ﴾ (الرعد ٣) قال : « المدّ هو البسط إلى ما لا يدرك منتهاه ، وقد جعل الله حجم الأرض عظيماً لا يقع البصر على منتهاه ، فإن قالوا : مدّ الأرض ينافى كونها كرة فكيف يكون مدّها ؟ قلنا : إن الأرض جسم عظيم ، والكرة إذا كانت فى غاية الكبر كان كل قطعة منها تشاهد كالسطح »[2] ، وفى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ (الغاشية ٢١) يقول : « ومن الناس من استدل بهذا على أن الأرض ليست بكرة ، وهو ضعيف ؛ لأن الكرة إذا كانت فى غاية العظمة يكون كل قطعة منها كالسطح »[3] .

---

(١) النازعات ٣١ وراجع فى ذلك : مفاتيح الغيب ٤٨/٣١ .
(٢) راجع : مفاتيح الغيب ٣/١٩ .   (٣) راجع : مفاتيح الغيب ١٥٧/٣١ - ١٥٨ .

ويعرض الألوسى لكروية الأرض فى تفسير آية سورة الرعد ، فيفسر مدّ الأرض ببسطها طولاً وعرضاً ، وينقل عن الأصم أن المدّ البسط إلى ما لا يرى منتهاه ، ففيه دلالة على بعد مداها وسعة أقطارها ، وقال : واستُدِلّ بالآية على أنها مسطحة غير كرية ، وذهب الأكثرون إلى أنها كرية ؛ لأن البلاد المتوافقة فى العرض كلما كانت إلى الغرب كان طلوع الشمس وسائر الكواكب عليها متأخراً بنسبة واحدة ولا يعقل ذلك إلا فى الكرة .

ثم أورد الألوسى استشكالاً على قول هؤلاء اختلاف المشاهد فى سطحها - يعنى ارتفاع جبالها وانخفاض سهولها ووديانها وبحارها - وأجاب بأن ذلك لا يقدح فى أصل الكرية الحسية المعلومة بما ذكر ، فإن نسبة ارتفاع أعظم الجبال إلى قطر الأرض كنسبة عرض شعيرة إلى ذراع ... ويستطرد الألوسى إلى القول : « والحق الذى لا ينكره إلا جاهل أو متجاهل أن ما ظهر من الأرض كرىّ حسًّا ، ولهذا تختلف أوقات الصلاة فى البلاد ، فقد يكون الزوال ببلد ولا يكون ببلد آخر ، وهكذا الطلوع والغروب وغير ذلك ... نعم إنها لعظم جرمها الظاهر يشاهد كل قطعة وقطر منها كأنه مسطح ، وهكذا كل دائرة عظيمة ، وبذلك يعلم أنه لا تنافى بين المد وكونها كرية »[1] .

ويقول صاحب الجواهر فى تفسير قوله تعالى : ﴿ يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ﴾ (الزمر ٥) : « والتكوير اللف واللىّ ، يقال : كار العمامة على رأسه وكورها ، ولا جرم أن كل واحد من الليل والنهار فى تتابعهما أشبه بتتابع أكوار العمامة بعضها على بعض . ألا ترى إلى الأرض وقد دارت حول نفسها وهى مكورة فأخذ النهار الناشئ من مقابلتها للشمس يسير من الشرق إلى الغرب يلف حولها طاوياً الليل ، والليل من الجهة الأخرى يلتف حولها طاوياً النهار ، فالأرض كالرأس والظلام والضياء يتتابعان تتابع أكوار العمامة ويلتفان متتابعين حولها ، وهذا التعبير من أعجب ما يعلم به أن القرآن

---

(١) راجع : روح المعانى ١٣/٩٠ - ٩١ .

يرشدنا إلى كروية الأرض أولاً ، ويرمز إلى دورانها حول نفسها ثانياً ، ذلك لأن الليل والنهار ليسا من خواص الشمس فلا ليل ولا نهار هناك ، وإنما هما فى الأرض فتكوير الأرض ظاهر الآية ودورانها أتى تابعاً بالرمز والإشارة »[1] .

أما صاحب الظلال فيعرض لكروية الأرض عند تفسيره لهذه الآية بما لا نحتاج معه إلى مزيد من القول ، قال : « وهو تعبير - يعنى التكوير - عجيب يقسر الناظر فيه قسرا على الالتفات إلى ما كُشف حديثاً عن كروية الأرض ، ومع أننى فى هذه الظلال حريص على ألا أحمل القرآن على النظريات التى يكشفها الإنسان ؛ لأنها نظريات تخطىء وتصيب ، وتثبت اليوم وتبطل غداً ، والقرآن حق ثابت يحمل آية صدقه فى ذاته ولا يستمدها من موافقة أو مخالفة لما يكشفه البشر الضعاف المهازيل ! مع هذا الحرص فإن هذا التعبير يقسرنى قسراً على النظر فى موضوع كروية الأرض ، فهو يصور حقيقة مادية ملحوظة على وجه الأرض ، فالأرض الكروية تدور حول نفسها فى مواجهة الشمس ، فالجزء الذى يواجه الشمس من سطحها المكور يغمره الضوء ويكون نهاراً ، ولكن هذا الجزء لا يثبت لأن الأرض تدور ، وكلما تحركت بدأ الليل يغمرّ السطح الذى كان عليه النهار ، وهذا السطح مكور ، فالنهار كان عليه مكوراً ، والليل يتبعه مكوراً كذلك ، وبعد فترة يبدأ النهار من الناحية الأخرى يتكور على الليل ، وهكذا فى حركة دائبة ﴿ يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ﴾ ، واللفظ يرسم الشكل ويعين طبيعة الأرض وحركتها ، وكروية الأرض ودورانها يفسران هذا التعبير تفسيراً أدق من أى تفسير آخر لا يستصحب هذه النظرية[2] .

ومن قبل يقرر صاحب الظلال حركية العالم ذراته ومجراته ، فيقول : « إن النظر المجرد إلى السماوات والأرض يوحى بوحدة الإرادة الخالقة المدبرة ،

---

(١) الجواهر فى تفسير القرآن الكريم ١٨/١٥٣ .
(٢) فى ظلال القرآن ٥/٣٠٣٨ .

وما كشفه الإنسان – حتى اليوم – من دلائل الوحدة فيه الكفاية ، فقد اتضح أن الكون المعروف للبشر مؤلف كله من ذرات متحدة فى ماهيتها ، وأنها بدورها تتألف من إشعاعات ذات طبيعة واحدة ، وقد اتضح كذلك أن جميع الذرات وجميع الأجرام التى تتألف منها سواء فى ذلك الأرض التى نسكنها أم الكواكب والنجوم الأخرى فى حركة دائمة ، وأن هذه الحركة قانون ثابت لا يتخلف لا فى الذرة الصغيرة ولا فى النجم الهائل »[1] .

وهكذا ينقلنا صاحبا الجواهر والظلال فى خطوة واحدة من دليل التكوير إلى دليل الحركة ، أو قل : إنهما حين يتكلمان عن دليل التكوير إنما يتكلمان فى الوقت ذاته عن دليل الحركة ؛ لأن التلازم بينهما واضح تمام الوضوح لا يحتاج إلى كد فى الأذهان كثير ، فمن يقول بدائرية الأرض يلزمه القول بدورانها وحركتها ، وينبع هذا التلازم من أن التكوير فى الآية السابقة يعنى لف الشىء على سبيل التتابع ، ولو كانت الأرض غير كروية (مسطحة مثلاً) لخيم الليل أو طلع النهار على جميع أجزائها دفعة واحدة ، ولا يوجد من قال بذلك أبداً ولا هو واقع أصلاً ، كما تدل عليه مشاهدات البشر اليومية حال قرارهم ، وتدل عليه أيضاً أسفارهم وجوبهم بقاع الأرض فى سويعات قليلة من ليل أو نهار .

ثم هناك محظور عقلى يمنع من القول بكروية الأرض دون حركتها ودورانها وانفكاك التلازم بين القولين ؛ إذ لو كانت الأرض ثابتة مع كرويتها لكان معنى تقلب الليل والنهار وتكور كل منهما على الآخر مرة فى اليوم والليل – دوران الشمس نفسها حول الأرض فى هذا الزمن القليل ، وهذا مستحيل لكبر حجم الشمس ولبعد محور الفلك الدائر بينها وبين الأرض ، وهو المحور الذى تقطعه الأرض – على صغر حجمها بالنسبة للشمس – فى سنة كاملة ، وعليه فكرية الأرض تستلزم حركتها ودورانها لا محالة فى ذلك .

(١) فى ظلال القرآن ٣٠٣٨/٥ .

ويلقى ابن حزم بعض الضوء على هذا الدليل فيقول : « ... أخبر الله تعالى أنه ﴿ خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً ﴾(نوح ١٥-١٦) وأخبر أنه : ﴿ جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً ﴾ (الفرقان ٦١) ، فإخبار الله بأن القمر فى السماء ، وأن الشمس أيضاً فى السماء إخبار لا يرده إلا كافر ، ثم قد قام البرهان الضرورى المشاهد بالعيان على دورانها – أى القمر والشمس – حول الأرض من مشرق إلى مغرب ، ثم من مغرب إلى مشرق ، فلو كان – أى أمر الأرض – على ما يظن أهل الجهل – أى من عدم دورانها – لكانت الشمس والقمر إذا دارا بالأرض وصارا فيما يقابل صفحة الأرض التى لسنا عليها قد خرجا عن السماء ، وهذا تكذيب لله تعالى[1] .

ومجمل أقوال العلماء ذوى الاختصاص فى حركة الأرض بنوعيها أن الأرض مثلها مثل إخوتها من أفراد المجموعة الشمسية تدور حول الشمس دورة واحدة فى سنة كاملة[2] – ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً تقريباً – بسرعة تبلغ سبعين وسبعمائة وألف كيلو فى الدقيقة الواحدة ، وينتج عن هذه الدورة تعاقب الاعتدالين « الربيعى والخريفى » ، والانقلابين « الصيفى والشتوى » فيؤديان إلى اختلاف فى طول النهار والليل وتداخل أحدهما فى الآخر تبعاً للموقع الفلكى للمكان والزمان الفصلى ، فما يزيده النهار فى فصل الصيف أخذاً من الليل ينقصه شتاء لحساب الليل ، وكذلك تتساوى ساعات الليل والنهار فى اليوم الواحد على مدار السنة تقريباً عند الاستواء وتتدرج حتى تصل إلى القطبين فترى فيها ستة أشهر متواصلة مظلمة (ليلاً) ، وستة أشهر

(١) راجع : الفصل فى الملل والأهواء والنحل ٢/٨٠ .

(٢) لا يعنى هذا ثبات الشمس وعدم دورانها ، أو بعبارة القرآن الكريم جريانها فى فلكها إلى مستقرها المذكور فى الآية الكريمة ، إنما تدور الأرض حول الشمس وتتبعها كذلك فى حركتها هى وجريانها الذى نعرض له قريبا .

متواصلة مضيئة (نهاراً)[1] .

ويصحب هذه الحركة السنوية للأرض حول الشمس حركة أخرى حول نفسها تتم فيها الأرض دورة كاملة يومياً من غرب إلى شرق وبسرعة ثمانين وستمائة وألف كيلو فى الدقيقة ، وبحركة الأرض هذه نرى ما كان صبحاً عند قوم هو نفسه ظهراً وعصراً ومغرباً وعشاءً ونصف الليل عند قوم آخرين ، فالشمس فى كل لحظة فى غروب وشروق تبعاً لدورة الأرض اليومية هذه .

ولا شك أن خلق الله الأرض على صورتها الحالية ومركزها بالنسبة للشمس ، ثم دورانها حول نفسها كل يوم مرة ، وحول الشمس فى كل سنة شمسية مرة – مظهر من مظاهر قدرة الله تعالى وحكمته ووحدانيته ، وآيات القرآن الكريم تنبه الناس إلى حقيقة يجب إدراكها وهى أنه تعالى وازن بين سرعتها ومركزها من الشمس ، ولو كانت سرعتها أقل من ذلك لأدت إلى زيادة ساعات الليل والنهار ، حيث تتأثر درجة الحرارة فيها ، وتصبح الأرض فى وضع لا يمكن أن تقوم معه حياة ، كما أنه تعالى لو خلقها بحيث يكون ليلها دائماً ونهارها دائماً فليس هناك إله غيره يستطيع أن ينعم على الخلق بالليل والنهار المتعاقبين ، ولو دارت الأرض حول محورها وحول الشمس فى فترة واحدة مقدارها ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً لحدثت تغيرات جوهرية فى ناموس الحياة ، فاستمرار الظلام فى نصفها والضياء فى النصف الآخر يؤدى إلى ارتفاع الحرارة فى النصف المضاء ارتفاعاً لا يطاق ، ويتجمد النصف المظلم ، وبذلك يصبح هذان النصفان غير صالحين للحياة ، ولكن نظام كوكب الأرض الحالى يكفل تعاقب الليل والنهار ، فينشأ السكون فى الليل والانتشار فى النهار ، ويتهيأ المناخ الملائم لحياة الإنسان والحيوان والنبات ، وهذا فضل الله

---

(١) انظر فكرة اليوم القطبى فى موضوع زمان خلق السماوات والأرض ، وراجع الجواهر فى تفسير القرآن الكريم ١٤٠/١ .

على العباد الذى يستدعى الإقرار بقدرته واستدامة شكره[1] .

يقول الله تعالى : ﴿ يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ والنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِى الْأَبْصَارِ ﴾ (النور ٤٤) ، ويقول جل شأنه : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (القصص ٧١ – ٧٣) ، ويقول تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾(الفرقان ٦٢) .

وموضوع حركة الأرض بنوعيها الذى نعرض له هنا للوقوف على إعجاز القرآن الكريم فيه وتنبيه البشر عليه فى مضمون آياته أمر تساءل عنه الناس من قديم وكان موضع اهتمام العلماء منهم بخاصة على نحو ما عرفنا ، وقد تساءل المسلمون كذلك حول هذا الأمر ، ولم تكن لهم من إجابات على تساؤلاتهم إلا ما يقرره كتاب دينهم ، ومن وقت إلى آخر يتجدد الجدل ويدور الحوار حول هذا الموضوع كأنه مما عمت به البلوى فى دنيا الناس ، ومن هنا نعرض لهذا الموضوع ؛ لأنه ما زال فى المسلمين – إلى اليوم – وربما فى غيرهم كذلك من ينكر هذه الحركة للأرض بنوعيها ، أو خفاء دليلها عليهم من آيات القرآن الكريم ، أو ربما تعارضُ الأدلة عند بعضهم التى لم تترجح بعد بيقين لا يقبل شكهم فيه .

فما حقيقة هذا الأمر ؟ وما كلمة القرآن الكريم فى هاتين الحركتين ؟

---

(١) راجع : ظواهر جغرافية ص ٥٢ – ٥٤ ، وهذا – تقريبا – نفس المعنى الذى ذكره ابن القيم قال . ومن جعل بينها وبين الشمس والقمر هذه المسافة ؟ فلو زادت على ذلك لضعف تأثرها بحرارة الشمس ونور القمر فتعطلت المنفعة الواصلة إلى الحيوان والنبات بسبب ذلك ، ولو زادت فى القرب لاشتدت الحرارة والسخونة – كما نشاهده فى الصيف – فاحترقت أبدان الحيوان والنبات ، وبالجملة فكانت تفوت هذه الحكمة التى بها انتظام العالم ؟ راجع : التبيان فى أقسام القرآن ص ١٨٧ .

وهل فيه دلالة عليهما ؟ وليس فى هذه التساؤلات تجاوز أو افتئات – كما قد يظن بعض من يخشى أن تحمل آى القرآن الكريم مالا تحتمل –؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد أنبأ صراحة عن الحركة الذاتية للشمس والقمر ، فمن المعقول أن يدل كذلك على الحركة الذاتية للأرض ، ليكون فى الدلالة عليها آية أخرى للناس تهديهم إلى الله وتشهد للقرآن الكريم أنه حقا من عند الله ، وإن كانت الدلالة على حركة الأرض ليست فى صراحة الدلالة على حركة أخويها (الشمس والقمر)[1] لأسباب معروفة ، قال تعالى : ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ . وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ . لَا الشَّمْسُ يَنبَغِى لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس ٣٧ – ٤٠) .

لقد مضت على الناس – عامتهم وخاصتهم – قرون بعد نزول القرآن الكريم وهم يعتقدون أن الأرض ثابتة لا حراك لها ؛ إذ ليس للأرض حركة مُحَسَّة فى الظاهر كحركة الشمس من المشرق إلى المغرب ، أو حركة القمر الظاهرة للعيان ، وليس فى اعتقادهم هذا من بأس مادامت معارف الناس فى هذه القرون لم تكن قد وصلت بعد إلى ما أثبته العلم للأرض من حركة سنوية حول الشمس أو حركة يومية حول نفسها ومحورها ، ومادام القرآن نفسه قد

---

(١) تؤكد الدلائل والشواهد الحسية والعلمية على أن الحركة فى الكون ليست قاصرة على هذين النيرين فحسب ، بل إن الناظر الفاحص لأجزاء الكون (ذراته ومجراته) يجدها جميعا فى حالة دوران أو طواف لا ينقطع حتى ليوقن أن هذا الطواف والدوران سنة عامة فى الخلق ، ولحركة هذين النيرين نظائر يلقاها الناظر فى المجموعة الشمسية التى تدور فيها أقمارها حول كواكبها كقمر الأرض وأقمار المشترى ، وتدور الأرض وأخواتها السيارات ومعها أقمارها حول الشمس دورانا متصلا ، وقد بين علم الفلك مبلغ انتشار ظاهرة الطواف بين الكواكب فرادى وجماعات ، فعالم المجرة الذى منه مجموعتنا الشمسية يدور ، بل العالم الفلكى – المجرى – بملايين شموسه وكواكبه والكون كله بألوفه المؤلفه من عوالمه المجرية يطوف ويدور ، راجع : الإسلام فى عصر العلم – الغمراوى (فصل : الطواف نظرة علمية) ص ٥٦ – ٦٠ .

راعى حال الناس ومعارفهم إلى هذا الوقت ومشاهداتهم فى الحديث عن ظواهر الكون ، وذلك ضمانا لهدايتهم وعدم نفرتهم منه ، ثم هو فى الوقت نفسه يضمن الآى القرآنى حقيقة الأمر كاملة حتى يكون ذلك داعيا إلى تصديقه والإيمان به إذا يسر الله سبيل الكشف عن هذه الحقيقة لأولى العلم فى مستقبل العصور[١] .

يقول صاحب الجواهر فى تفسير آيات سورة « يس » (٣٧ - ٤٠) سابقة الذكر : « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ؛ لأنهما يجريان بحساب منظم ، وكل من الأرض والشموس والأقمار فى فلك يسبحون كما يسبح السمك فى الماء ، فالشمس فى مدارها حول كوكب من كواكب الجاثى لا يدرى مدة دورتها ، والأرض تجرى حول الشمس فى سنة وحول نفسها فى يوم وليلة ، والقمر يجرى حول الأرض كل شهر .

« ولما كانت مسألة الأرض صعبةالفهم على النوع البشرى قديماً قدمها فى الذكر وفصل بينها وبين الشمس والقمر بجمل حتى لا يقال إنها داخلة فى الكلية فينافى ما عرفه الناس إذ ذاك وأتى بلفظ « كل » للدلالة على دخولها ليتفطن لها الناس فى هذه الأعصر ، وليعلموا أن الله خبأ لهم الحكمة فى القرآن ليستخرجوها مطبقة على الكشف لئلا تقف عقول المسلمين عن السير فى العلوم خيفة أن تنافى كلام ربهم ، وليعلم الذكىّ أن هذه الرموز وضعت فى القرآن لنبشر بها المسلمين أن هذا زمان رقيهم وليسوا كغيرهم من الأمم الذين ارتطموا أمدا طويلا فى الجهالة المتوالية[٢] ؛ لأن دينهم ليس فيه ما به يخرجون

---

(١) الإسلام فى عصر العلم ص ٢٣٩ .

(٢) يقرر « موريس بوكاى » أن عناية المسلمين الأوائل بالعلم كانت جزءا لا يتجزأ من الواجبات التى أمر بها الإسلام وأن تطبيق هذا الأمر هو الذى أدى إلى ذلك الازدهار العظيم للعلوم فى عصر الحضارة الإسلامية ، تلك التى اقتات منها الغرب نفسه قبل عصر النهضة فى أوربا ، وإن التقدم الذى تم اليوم بفضل المعارف العلمية فى شرح مالم يكن مفهوما ، أو فى شرح بعض ما قد أسىء تفسيره حتى الآن من آيات القرن - ليشكل قمة المواجهة بين العلم والكتب المقدسة . راجع : القرآن الكريم والتوراة والإنجيل - موريس بوكاى ص ١٤ طبع دار المعارف ١٩٧٩ م .

من الجهالة من الإشارات للعلوم ، أما المسلمون فهم على بينة من ربهم فقد ظهر لهم أن القرآن كتاب حكمة وعلم تصريحاً وتلويحاً ، وإذا جاءت شبهة ففى القرآن حلها حتى لا يقف المسلمون زمنا عن الرقىّ .

« انظر كيف يقول : « يَسْبَحُونَ » ومعلوم أن السبح للسمك أليق فجميع الكواكب تسير فى مدارات ، وتلك المدارات فى عالم الأثير فهى إذن كأنها سمك فى بحر .

« هذه حقيقة مدارات الكواكب فى العلم الحديث ، وهذا هو الذى نطق به القرآن ، وانظر إلى كلام المفسرين - رحمهم الله - كيف تراهم يقولون فى « يَسْبَحُونَ » : يسيرون ، وذلك لأن الفلك القديم المشهور إذ ذاك لم يكن فيه للكواكب سبح ، فأعجب للقرآن كيف أتى بالكشف الذى يسميه الناس حديثا ، وانظر كيف أعقب ذلك بذكر السفن السابحة فى البحار للمناسبة بينهما وأن كلاًّ له طرق لو تركها اختل فى جريه ، وكلّ سابح فى مداره ليؤكد للمسلمين بهذا التناسب أن الكشف الحديث يناسب القرآن أشد المناسبة ، ويشير لهم من طرف خفى أن يجدوا فى المعقولات والبحث ، فالقرآن أمامكم لا ينفر من المعقولات ولا يأنف إلا من الخرافات والجهالات فقال : ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ (يس ٤١)[١] .

وهكذا يجد المتدبر والمتأمل فى الآيات إعجازا يتجدد بتمادى الزمان ويقف عليه فى « الموازبة بذكر ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ بعد ذكر الشمس والقمر والأرض ، وجعلها بعد الشمس والقمر لإجماع الأمم على حركتهما ، وأما الأرض فذكرت إيناساً لمن يعتقد سكونها لوجود الفصل بالشمس والقمر ، ولمن يعتقد دورانها بدخولها فى « يَسْبَحُونَ » ثم بذكر السفن فى قوله تعالى : ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ بعد الكواكب

(١) راجع : الجواهر فى تفسير القرآن الكريم ١٧/١٤٤ - ١٤٥ .

والأرض ففيه إشارة إلى أن الجميع فى واد واحد ، فالسفن فى البحر كالشمس والقمر والأرض فى الأثير وهى المادة المالئة للفضاء ، وكأن الكواكب كلها والأرض سفن فى بحر الأثير »[1].

وقد أتى الجمع بين هذين الأمرين فى القرآن الكريم على نحو لم يتوفر لغير القرآن الكريم ، فقد جاءت فيه دلالات متعددة على حركة الأرض بنوعيها جاءت عن طريق الإشارة مراعاة لمقتضى الحال فى خفائها وعدم إحساس الناس بها إحساسهم بحركة الشمس أو حركة القمر المنظورتين ، فلو أن القرآن الكريم قد صارح الناس بحركة الأرض وهم يحسبونها ساكنة لكذبوه وحيل بينهم وبين هدايته ، فكان من الحكمة والإعجاز معا أن ينبههم الله فى هذا الموضوع - لا إلى الحركتين نفسيهما ولكن - إلى نتائج كل من الحركتين منا عليهم بها وحثا لهم على اكتناه أسبابها[2].

ومن نتائج الحركة الأولى للأرض (حول نفسها) حدوث الليل والنهار وتعاقبهما وزحف كل منهما على الآخر وإزاحته ليحل محله من الطرف الآخر فى كل بقاع الأرض ، ووصف الله لهما بالحركة إدبارا وإقبالا ، وقسم الله بهما فى هذه الأحوال - إنما هو للفت الانتباه إلى ما يسبب حدوثهما وجعل كل منهما خلفة للآخر ومكورا عليه ، والتكوير - كما عرفنا - لف الشىء وليه ، وهذا من قبل الله يكون بلف محورى للأرض التى هى محل الليل ، وبلف النهار على الليل بلىّ لأشعة الشمس فى غلاف الأرض الهوائى الذى تملأه الظلمة وهى تدور ، والفعل « يكور » يدل بظاهره على تكوير جو الأرض - الذى لا يكون إلا بكرويتها نفسها - حيث يشغل هذا الجو بالليل والنهار ويعقب أحدهما الآخر على التجدد فى كل بقاع الأرض .

---

(١) السابق ٢٥٤/١٣ .
(٢) الإسلام فى عصر العلم ص ٢٣٣ .

ومن الآيات الكريمة فى ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأعراف ٥٤) ، ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾ (الفرقان ٦٢) ، ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ (الزمر ٥) ، ﴿ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴾ (المدثر ٣٣ - ٣٤) . ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً ... ﴾ (النمل ٨٦) .

أما حركة الأرض حول الشمس والتى تتم فيها دورة كاملة سنويا فالإشارة إليها فى آيات متعددة تدل على إيلاج الليل فى النهار وإيلاج النهار فى الليل وتداخل أحدهما فى الآخر من جهة الطول والقصر على تتابع الفصول الناشئة من تلك الحركة ، وهذا بين فى آيات منها : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (الحج ٦١) ، ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (لقمان ٢٩) ، ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾ (فاطر ١٣)

وتكرار المعنى هكذا فى آيات متعددة توكيد له من ناحية وتنبيه من الله لعباده أن يتطلبوا سر هذه الظاهرة الكونية التى يحسونها من ناحية أخرى .

أما الإشارة التى تكاد تكون صريحة هنا فهى عبارة تنص على أن للأرض حركة غير حركتها اليومية ، وهذه الإشارة والدلالة نجدها فى قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِى أَتْقَنَ

كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ (النمل ٨٨) ، فكما لا يتحرك السحاب بذاته ولكن محمولا على الرياح كذلك الجبال يظنها الرائى جامدة فى مكانها ، ولكنها تمر مسرعة محمولة أيضا كالسحاب ، وليس لها حامل حينئذ إلا الأرض ، والكلام فى الآية ليس فى معرض ما يحدث للجبال يوم القيامة – كما فهم المفسرون من قبل – لأن ذلك لا يتلاءم مع قوله تعالى ممتنا على الإنسان ومرشدا إلى دقة صنعه فى الكون الذى يفيد منه الإنسان فى عاجلته : ﴿ صُنْعَ اللهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ ، وأولى بالخطاب فى الآية أن يكون للإنسان فى كل عصر ليدله على آية من آيات الله فى حركة الأرض حول الشمس ، كما دلت الآية قبلها : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (النمل ٨٦) على حركة الأرض حول نفسها ، أما ورود آية البعث بين هاتين الآيتين فهو لصرف الأذهان عن المعنى الذى لم تكن لتعقله البشرية قبل إذن الله بالكشف عن سنته فى حركة الأرض حول الشمس .

ونزيد الأمر وضوحا فنقول : إن هذه الآية تقرر للأرض حركة انتقالية قبل أن يعرفها العلم بقرون ، وقد أخطأ فى فهمها من ألحقوها فى المعنى بالآية السابقة عليها وهى قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ (النمل ٨٧) ؛ إذ لم يكن يخطر ببالهم أن للأرض حركة وهم يشاهدونها قارة ويحسبونها ساكنة ، كما ينكر بعض المحدثين أن تكون الآية عن الجبال فى الدنيا فى حياتنا هذه صونا للآيات القرآنية أن تقحم عليها النظريات العلمية ، بل أن تقحم عليها الحقائق العلمية ، ناسين أن الطريق الصحيح لصون القرآن الكريم عن مثل هذا ليس هو إيصاد الأبواب دون إثبات إعجاز القرآن العلمى ، ولكن هو النقد الدقيق لدليل ذلك الإعجاز ، وكل حجة هؤلاء فيما أنكروه أن الآية مسبوقة بآية النفخ التى مر ذكرها ، وعلى هذا فالسياق – فى رأيهم – يقتضى

أن تكون آية الجبال متعلقة بيوم النفخ فى الصور .

ولكن السياق الذى استند إليه هؤلاء لا ينبغى أن يقتصر فيه على الآية قبلها فحسب ، وإذا توسعنا فيه ليشمل أربع آيات أخرى قبلها وجدنا مثالا كالذى احتجوا به إلا أن الحجة فيه عليهم - هذه المرة - وليست لهم ، وحسبنا ثلاث آيات فى يوم البعث أو الحشر تليها آية كونية لا يمكن أن ترجع إلى يوم الحشر أبدا ، والآيات الأربع هى قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ . حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ . أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (النمل ٨٣ - ٨٦) ، فلو صحت حجة من يزعم أن آية : ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ... ﴾ متعلقة بيوم النفخ فى الصور لمجرد أنها مسبوقة بآية : ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ... ﴾- لصحت حجة من يزعم أن آية : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ ... ﴾متعلقة بيوم الحشر لمجرد أنها مسبوقة بآيات عنه ، بل هو أولى من زعم الأولين ، ولا يعقل - كما لا يخفى - مثل هذا القول .

فالسياق فى هذه الآيات الأربع - إذن - دلالته على عكس ما يظنون ، إنه يذكر بيوم القيامة إنذارا ووعيدا وزجرا لغير المؤمنين ، ثم يأتى ببعض آيات الله الكونية الدالة عليه سبحانه وتعالى لعلهم يؤمنون ، وكذلك الحال فى الآيتين التاليتين للآيات الأربع ، يذكر وينذر بيوم القيامة فى آية : ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ... ﴾ ثم يذكر آية أخرى لله فى الكون تدل عليه سبحانه وتعالى : ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ... ﴾، ثم يتابع حديث يوم القيامة فى آيتين تاليتين لينتهى إلى الدعوة إلى الله على لسان رسوله ﷺ حتى آخر السورة[1] .

(١) راجع : الإسلام فى عصر العلم - الغمراوى ص ٢٣٦ - ٢٣٩ .

وقول هؤلاء : إن الآية تخبر عما تكون عليه الجبال يوم القيامة – استنتاجا من السياق الذى أشاروا إليه – يرده ويبطله جريان هذه الآية فى تعبيرها عن حال الجبال على نحو يختلف تماما عن نظائرها الكثيرة فى القرآن الكريم ، والتى يجيء التعبير فيها عن حال الجبال يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات صريحا واضحا فى سيرها ودكها ونسفها وبسها ورجفها[1] ... وغير ذلك من أحوالها التى هى حقائق يقينية عبر عنها القرآن الكريم ، ومفادها أن نظام العالم – شمسه وكواكبه ومجراته ، والأرض وجبالها وبحارها – سوف يضطرب أمره ، وينفرط عقده ، ويكون على نحو آخر غير ما عهدناه عليه فى الدنيا ، فسير الجبال ودكها ونسفها وبسها ورجفها مثله مثل انشقاق السماء وانفطار الأرض وانتثار الكواكب وتسجير البحار وانكدار النجوم ... كل ذلك على الحقيقة يوم القيامة ، حقيقة ليس معها مجال لظن أو تخيل أو حسبان .

وعليه فما معنى أن يعبر الله مع هذه الآية بعينها بأن الرائين لها يحسبونها جامدة ويظنونها ثابتة على حين أنها حقيقةً على غير ما يحسبون أو يظنون ، والآخرة لا ظن فيها ولا حسبان ، أما مجال الظن والحسبان – المخالفين للحقيقة التى تعتبر بها الإنسانية وتتعظ – فلا يكون إلا فى الدنيا ، وهى دار العمل التى يفيد فيها الإيمان بآيات الله ويضر فيها الإنكار بهذه الآيات ، أما فى الآخرة فلا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا ؛ لأنها دار

---

(١) تقرر هذه الأحوال المتعاقبة للجبال يوم القيامة الآيات التالية :

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴾ (الكهف ٤٧) ، ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً . وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً ﴾ (الطور ٩ – ١٠) ، ﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً . وَسُيِّرَت الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً ﴾ (النبأ ١٩ – ٢٠) ، ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ (التكوير ٣) ، ﴿ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ (الحاقة ١٤) ، ﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا . وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴾ (الواقعة ٤ – ٥) ، ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً ﴾ (المزمل ١٤) ، .... وغير ذلك من الآيات .

الجزاء على ذلك ، ودار الحق المطلق الذى لا خيال فيه ولا وهم ولا ظن ولا حسبان .

ويرشح لهذا الاستنتاج والاجتهاد فى فقه الآية ختم الله لها بما يفيد الإنسان فى دنياه عظة واعتبارا ، ويوقفه بالتأمل والتدبر فى آيات الله على مدى الدقة وإتقان الصنع فى خلق الله وحكمة الله فى هذا الخلق فيمسى ويصبح ذاكرا لله ومسبحا بحمده وشاكرا لأنعمه ومنوها بإبداعه فى خلقه ﴿ صُنْعَ اللهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِما تَفْعَلُونَ ﴾(النمل ٨٨) .

لقد أذهلت هذه الإعجازات العلمية فى القرآن الكريم أو الاكتشافات الجديدة فيه كثيرا من المهتمين بهذه الجوانب فى القرآن الكريم من المستشرقين وظن بعضهم أن كان له فضل السبق إليها وقرر الاحتفاظ بها لتنشر بعد خمسين عاما زاعما أن المجتمع العربى والإسلامى لن يرحب بها الآن[1] ، ولكنا نجد فى المجتمع العربى والإسلامى منذ خمسين عاما مضت من كرس حياته كلها داعيا المسلمين لدراسة هذا الإعجاز العلمى وناشرا لهذه الكشوفات فى سفر ضخم لم يقدره المسلمون آنذاك قدره ، بل وجد فيهم من اعتبره سوأة فى الفكر الإسلامى بعامة يجب أن تستر ، وما لبث الصبح أن أسفر لذى عينين وعرف اليوم لهذا الجهد الضخم قدره وحقه فغدا محور حديث الإعجاز فى هذا العصر

---

(١) يقول « جاك بيرك » المستشرق والمؤرخ الفرنسى : « لقد قررت وضع الكشوفات الجديدة التى وجدتها فى القرآن الكريم والتى لم يتطرق إليها أحد قبلى - قررت وضع هذه الكشوفات فى نصوص عديدة مختومة تودع فى المركز الوطنى لحفظ الوثائق بباريس وسوف أطلب منهم فتحها بعد مرور خمسين عاما أو يزيد ؛ لأن المجتمع العربى والإسلامى لن يرحب بها الآن » راجع : مجلة الأمة القطرية ص ١٧ العدد السبعون - يونية ١٩٧٦ م . وقد يكون موقف هذا المستشرق وأمثاله « موريس بوكاى » وغيرهما أحسن حالا وأصدق من غيرهم ؛ إذ يشير هذا الموقف فى الحقيقة إلى روح العداء للقرآن الكريم فى الدوائر الاستشراقية عموما ، يقول « بوكاى » : « ... ولاحظت أن هناك رفضا باتا للنظر بعين الاعتبار - ولو لمجرد التأمل - فيما يحتويه القرآن الكريم مما يتعلق بموضوع الدراسة المزمعة - يعنى الموازنة بين كتب الأديان الثلاثة فى موضوع العلم - كأن الرجوع فى ذلك إلى القرآن يعنى الاعتماد على الشيطان » راجع : القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم - موريس بوكاى ص ٧ .

العلمى ولغته المهمة التي يعرف بها العالم كتاب الله الكريم وعدة الدعاة إلى الله عز وجل .

يقول صاحب الجواهر فى تفسير آية سورة النمل : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ... ﴾ : إن هذه الآية بديعة الوضع محكمة الصنع ، فإن التفسير يناسب المتقدمين من الأمة الإسلامية ، وإذا فسرت بأن الأرض دائرة حول الشمس والجبال بالطبع سائرة معها ونراها الآن جامدة وهى فى الحقيقة جارية سريعا جدا - فإن ذلك يناسب قوله : ﴿ صُنْعَ اللهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ فهذا هو الإتقان وإلا فالقيامة تخريب للعالم ، والإتقان يناسب هذا التفسير .

ثم يفصل هذا الإجمال فى تفسير الآية فيقول : « إن للآية معنيين ، معنى يليق بالأمم الإسلامية التى قبلنا ، ومعنى يليق بأيامنا ، والقرآن يحتمل المعنيين ولكن الثانى أقرب ، أما المعنى الأول فإن الجبال يوم القيامة تمر مر السحاب لأجل أن تصل إلى الأرض فتسوى بها ، ولعظم حجمها يراها الإنسان كأنها جامدة غير متحركة وهذا يناسب مساق الآية ، وأما المعنى الثانى فهو أن الأرض تجرى سريعا والجبال ما هى إلا من أجزائها فهى جارية تمر هى والأرض حول الشمس كما يمر السحاب حول الأرض ، والدليل عليه قوله : ﴿ صُنْعَ اللهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ فعبر بلفظ أتقن - لا بلفظ خرب - كل شىء ؛ لأن القيامة تخريب لا إتقان للصنع وفرق بين الصنع والتخريب ، وكأن الله تعالى أتى بالآية على هذا الشكل لتكون موافقة للعصور الأولى من حيث مساقها ولهذه العصور من حيث نهايتها ، ويكون فهم الناس هو الذى يخطىء ويصيب والحقائق باقية على حالها .

ثم يزيد المسألة إيضاحا فيقول : « إن علماء الهيئة قسمان : المتقدمون وهم يوافقون ما يظهر للنظر العام من ثبوت الأرض ودوران الشمس ، والمتأخرون وتخالف هيئتهم ما يعرفه العامة فيحكمون بدوران الأرض حول

الشمس ... والعجب كل العجب من وضع الآية التى نحن بصددها وضعا متقنا على حسب ما قدمنا ، وبيانه أن قوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ إلى قوله : ﴿ دَاخِرِينَ ﴾ مسوقة ليوم القيامة ، ثم قوله بعدها : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ حملها العلماء على يوم القيامة ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ (الكهف ٤٧) ولشدة عظمتها ترى كأنها واقفة ، ولا ريب أن هذا التفسير يناسب من علقت فى ذهنه الهيئة القديمة من أيام نقل الفلسفة اليونانية إلى الآن فناسب ما قبل الآية وصدرها أول الأمة .

وإذا نظرنا إلى قوله بعدها : ﴿ صُنْعَ اللهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ نجد أن خراب الأرض ينافى الإتقان ، وإنما الإتقان يناسب سير الأرض وجبالها ثم يراها الإنسان مع شدة حركتها ساكنة لا تتحرك فهذا هو الاتقان العجيب ، وإنما لم يقل : وترى الأرض لأنها على هذا الرأى لا ترى متحركة إلا مع خروج الإنسان بالمرة عنها وهذا مستحيل فى الدنيا[1] ، أما الجبال فرؤيتها ممكنة ، ثم انظر كيف تسير الأرض بتلك الحركة العجيبة حول نفسها وحول الشمس ونحن نراها ساكنة لم يحس أحد بحركتها من آدم إلى الآن ، فهذا هو الإتقان وهذه هى الحكمة ، وهذا هو الوضع العجيب الذى جمع بين الحركة والسكون ، ففيه تنبيه على أن العالم كله فى حركة مستمرة مع أنه يرى فى سكون[2] ، بل الإنسان يرى ساكنا مع أنه لا يقف فكره لحظة لا فى اليقظة ولا فى المنام ، فالعالم والإنسان كل فى حركة مستمرة ويرى فى الظاهر كأنه ساكن دائم السكون ، والجبال وهى على الأرض ترى أنها ساكنة مع أنها على الهيئة الجديدة سائرة دائما معها ، وهذا هو غاية الإتقان ويحق لنا أن نقول : ﴿ صُنْعَ اللهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ ونعجب من هذا الوضع المتقن فى الآيات

---

(١) يلاحظ أن هذا التفسير قد نشر قبل خمسين عاما قبل أن يفكر الإنسان – مجرد التفكير – فى جوب الفضاء الكونى والخروج من جو الأرض بله النزول على كواكب أخرى غير الأرض .

(٢) راجع : ص ١٥٥ من هذا الكتاب .

وكيف ناسب صدرها صدر هذه الأمة وعجزها متأخريها ... فلم تصادم الآية مذهب السابقين وأشارت لمذهب المتأخرين ، وهذه هى الحكمة العجيبة جعل نظام كلامه كنظام ملكه ، فما أتقن الفعل وما أحسن القول ، ألا فليتق الله العلماء وليبينوا للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون ، وكفى بإتقان هذه الآية وإحكامها برهانا ساطعا ومعجزة لمن درس العلوم وذاق المعارف ، وما يعقل هذا إلا العالمون »[1] .

« على أننا لو أرخينا العنان للقلم لوجدنا فى القرآن الكريم ما يشير - غير هذه الآية - إلى الطريقة الجديدة (يعنى حركة الأرض) وإن لم يذكر فى كتب المتقدمين ، فمنها قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ﴾ (الرعد ٣) فذكر الليل والنهار بعد ذكر الأرض يشير إلى أنهما من آثار الأرض ، ويقوى ذلك أنه قال : ﴿يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ ﴾ فجعل الليل الذى هو ظلمة الأرض يغشى به النهار الذى هو ضوء الشمس ، ففيه تلميح إلى أن الأرض هى التى تحدث ذلك بفعل الله تعالى ، ومنها : ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا . وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا . وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا . وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ (الشمس ١ - ٤) فجعل النهار الذى هو فى مقابلة وجه الأرض للشمس مجليا لها ، والليل الذى هو الظلمة الأصلية للأرض مغشيا لها ، فأسند فاعلية ذلك لغير الشمس وهو الليل والنهار اللذان هما من آثار الأرض ، ومنها قوله : ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (يس ٤٠) بعد ذكر الأرض والقمر والشمس[2] .

---

(١) راجع : الجواهر فى تفسير القرآن الكريم ٢٥٢/١٣ - ٢٥٤ .
(٢) راجع : الجواهر فى تفسير القرآن الكريم ٢٦/٦ .

شبهـــات وردود

ونعرض هنا لأهم الدلائل - أو الشبهات - التى يسوقها أصحابها بين يدى اعتراضهم على حركة الأرض ودورانها أو توقفهم فى قبول ذلك ، فنناقش هذه الدلائل أو الشبهات واحدا بعد الآخر ، وهى دلائل - أو شبهات - تتدرج عندهم من الحس والواقع المشاهد إلى مخالفة الأدلة السمعية النقلية ، ومخالفة إجماع المسلمين وأهل الكتاب ، ثم اقتضاء ذلك القول تشكيك العقلاء فى حواسهم والإفادة منها وإنكار الضروريات ، وأخيرا الإفضاء إلى تكذيب الرسل وعدم الثقة بأخبارهم[1] .

والظاهر أن أقوى هذه الشبهات هى شبهة - أو دليل - الحس والواقع على حد تعبير هؤلاء ، وهى الشبهة التى تقرر « أن دوران الأرض وحركتها مخالف للواقع المشاهد المحسوس ، فالناس يشاهدون الجبال فى محلها لم تسير كجبل النور فى مكة ، وأحد فى المدينة ، فلو كان الله أراد بالآية الخبر عن حال الجبال حين التنزيل لوقع مخبره ولشاهد الناس مرور الجبال كما يشاهدون مرور السحاب ، فلما لم يقع شيء من ذلك فلم تسير الجبال ولم يشاهد الناس مرورها مر السحاب علم أن الله سبحانه لم يرد بالآية الخبر عن حال الجبال حين التنزيل ، وإنما أراد الخبر عنها حين قيام الساعة ، ويزاد فى توضيح هذا الدليل أن الناس لم يزالوا مسلمهم وكافرهم يشاهدون الأرض قارة ساكنة ، ويشاهدون كل بلد وجبل فى جهته لم يتغير عن ذلك شيء[2] .

---

(١) راجع : الأدلة النقلية والحسية على جريان الشمس وسكون الأرض - ابن باز ص ٧١ ، ٧٣ .

(٢) راجع : الأدلة النقلية والحسية على جريان الشمس ص ٧١ .

وهذه الشبهة – أو الدليل عند أصحابها – لا تقبل فى العقل إلا إذا شوهدت هذه الجبال والبلدان والجهات من خارج الأرض ليعلم على وجه اليقين إن كانت تدور بدوران ما يحملها وهو الأرض أم أنها قارة ثابتة فى مكانها ، أما أن يشاهد هذا كله ويُرى من مشاهد وراء مستقر على سطح الأرض فلن يشهد ولن يرى إلا ثباتا وقرارا دائمين على نحو ما سبق فى هذه الشبهة الحسية .

ولكن ما حيلة المشاهد والرائى وهو يشهد وينظر الأرض وما فيها وهو محمول عليها كسائر الأشياء الأخرى المحمولة عليها والتى هى محل مشاهدته ورؤيته ، كل ذلك يتحرك ويدور لا بذاته – كما يتصور المعترض فى شبهته الحسية – ولكن بالإضافة ، ومحمولا على ما يدور ويتحرك وهو الأرض ، فظهور الثبات والقرار لهذه الجبال والبلدان والأماكن إنما هو ناشىء من كون حركة الأرض (يومية أو سنوية) هى حركة لها ولجميع ما عليها ، يتحرك معها كل شىء فيها بما فى ذلك الإنسان الذى ينظر ويشاهد فلا يرى ما حوله إلا ثابتا قارا ، وإن كانت حقيقة الأمر أنه يدور مع هذه الأشياء المنظورة والمشاهدة ، فثبات هذه الأشياء وقرارها المشاهد لا يخالف دورانها وحركتها حيث إن الحركة جماعية للأرض ولما على الأرض ولمن على الأرض سواء بسواء .

أما الأدلة النقلية التى يزعم لها هنا الشهادة على قرار الأرض وثباتها فإنها لا تدل على ذلك إلا بنوع من التأويل يخرجها عن ظاهر ما تدل عليه ، ولا يقوم هذا التأويل على ما تشهد له اللغة ، ونختار هنا آيتين فحسب استدل بهما على قرار الأرض فى مقابلة حركة الشمس والقمر وهما قوله تعالى : ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (النحل ١٥) ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (الأنبياء ٣٣) ، ويقال عن هاتين الآيتين – ومثيلاتهما

فى القرآن الكريم -[1] إنهما من أصرح النصوص التى تعترض القول بحركة الأرض ودورانها ، ولو نظرنا إلى فكرة الحركة من حيث هى نظرا شرعيا لما استطعنا إلا المصير إلى ما تقرره الآيات القرآنية من القول بثبات الأرض وعدم حركتها[2].

فلنر الآن ما فى الآية الأولى من النص والتصريح على ثبات الأرض الذى يقول به هؤلاء ، وما إذا كان أقوى من دلالة الآية بعينها على الحركة ، أم أن العكس تماما هو الصحيح ؟

وجل ما قاله هؤلاء نقلا عن علماء اللغة فى معنى الميد أنه التحرك والميل والاضطراب فالله تعالى ألقى الجبال فى الأرض لترسو بها وخشية أن تميد بهم وتتحرك ، ولما نفى الله الميد عن الأرض دخل فى نفيه ذلك نفى حركتها ودورانها واضطرابها ، وأرشد عباده بذلك إلى أنها قارة ساكنة ليطمئنوا على ظهرها .

ويقال فى الإجابة على هذه الشبهة التى ظهر لنا منها أن ليس فى الآية تصريح بثبات الأرض - أن لا خلاف على أن الميد هو الحركة والاضطراب ، ولكن إذا كانت الغاية من إرساء الجبال للأرض هو خشية ميدانها واضطرابها ، فهل الذى يخشى من اضطرابه وحركته ، ويدعو إلى ضرورة إرسائه حتى لا ينصرم أمره وينفرط عقده هو الجسم الثابت أم الجسم المتحرك ؟، وإذا كان الشىء ثابتا بطبيعته فما الذىَ يدعو إلى ضرورة إرسائه وهو ثابت أصلا ؟

---

(١) راجع قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (الأنبياء ٣١) ، ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ (لقمان ١٠) ، ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (يس ٤٠) .

(٢) راجع : الأدلة النقلية والحسية على جريان الشمس وسكون الأرض ص ٦٤ .

قد يقال : إن التثبيت والإرساء مقصود به حماية الأرض وقت الزلازل والبراكين ولو كان الأمر كذلك لخفت وهانت قيمة الجبال كثيرا ، وضعف أو قلّ أمر الاتعاظ بها وناقض ذلك تنويه الله بها فى هذا الأمر ؛ إذ من المعروف أن حدوث الزلازل والبراكين وغيرهما من الاضطرابات الأرضية لا يحدث فى كل الأرض دفعة واحدة أو فى وقت واحد ، بل يحدث فى بعضها فحسب وعلى أزمان متفاوتة جد التفاوت ، وقد تنتهى أعمار أجيال وأجيال لا يشاهدون شيئا من ذلك فتفوت فرصة اعتبارهم واتعاظهم ، ثم هل حدثنا التاريخ الإنسانى ولو مرة واحدة حفظت الجبال فيها الأرض مما كان يمكن أن يعرض لها مع هذه الزلازل والبراكين لولا حماية الجبال لها ؟ أم أن الواقع المشاهد هو حدوث ما تحدثه هذه الزلازل والبراكين من الفواجع والكوارث وصنوف التدمير التى لا تحول دونها جبال الأرض جميعا ؟ – كما حدث قريبا فى براكين « كولومبيا »[1] –.

• وإذا كان الميد فى اللغة هو مطلق الحركة فهل يمنع تفسيره هنا بالميل والاضطراب الذى يمكن نشوءه على سطحها وقشرتها الخارجية بسبب غليان داخلها وفوران باطنها الدائمين ، ولكن هذا لا يحدث أبدا لوتدية الجبال التى تربط هذا السطح بطبقات الأرض السفلى ، حيث يتجاوز عمق هذه الجبال وأصولها داخل الأرض أضعاف ما هو ظاهر منها على سطح الأرض الخارجى .

أو لا يمكن تفسير الميد بالاضطراب الذى يمكن نشوءه مع حركة الأرض فى دورانها إذا لم تنتظم فى هذا الدوران ، ولكنها تنتظم وتتوازن فى دورانها على نحو لا نشعر به بسبب كبر حجم الأرض بالنسبة لمن يعيشون عليها ونتيجة لهذا التوازن الذى تحدثه الجبال مع دوران الأرض بإرادة الله جل وعلا ، ولهذا كله تصبح دلالة هذه الآية ومثيلاتها مما أشرنا إليها على قضية

---

(١) إحدى ولايات أمريكا الجنوبية وقد حدث هذا فى ربيع أول ١٤٠٦ هـ – نوفمبر ١٩٨٥ م .

دوران الأرض وحركتها أوضح من دلالتها على شيء آخر .

أما كيفية إرساء الجبال للأرض فى هذا الدوران وحفظها لتوازنها مع هذه الحركة بنوعيها ، وحمايتها من الميدان والاضطراب فهى دعوة للعلماء من جهة أخرى لاكتشاف حقيقة هذا الحفظ والتوازن ، ويقول العلم فى هذا الصدد - بالإضافة إلى ما ذكر قريبا : إن الجبال موزعة فى الأرض على نحو من التماثل فى الكتلة والوزن بالنسبة لحركة الأرض اليومية ، بحيث إذا تصورنا قسمة الكرة الأرضية نصفين من أى مكان لكان لكل نصف منهما ما يساوى الآخر تماما فى الكتلة والوزن لا فى الهيئة والحجم ، فيحدث بذلك التوازن فى الأرض حال مدارها .

وقد يكون السر أعظم من هذا فيرجع إلى عوامل ثانوية غير معروفة ولا يشعر الناس بها ، أو يكون ذلك توازنا مع حركة الأجزاء السائلة فى جوف الأرض أثناء الدوران ، أو فعل حركة مياه البحار على الشواطىء وتأثير الكواكب الأخرى فى ذلك مما يعرف بحركة المد والجزر ، أو غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله[1] ... ولكن يبقى قبل هذا وبعده إعجاز القرآن الكريم فى تقرير هذه الحقيقة العلمية عن إرساء الجبال للأرض وحفظها من الميدان والاضطراب ، وكون ذلك من أدلة الله الكونية على وجوده وحفظه ، ورعايته لمخلوقاته وعنايته بهم بمثل هذه السنة الكونية فوق أن ذلك دليل على كون القرآن الكريم من عند الله مبدع هذه السنن والآيات الكونية .

أما الآية الثانية وهى التى جمعت بين حركة الشمس وتابعيها (الأرض والقمر) - فقد جهد العلماء أنفسهم فى تأويل مفردات الآية التى يفهم منها الحركة لكل هذه الأجرام ، فصرفوا الألفاظ عن ظاهر ما تدل عليه وخرجوا عن أبسط قواعد التفسير وضوابطه فى هذا الأمر ، وعلى الرغم من قولهم : إن

---

(١) راجع : الإسلام فى عصر العلم - الغمراوى ص ٣٠٠ .

التنوين فى لفظ « كلّ » فى قوله تعالى : ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ هو تنوين العوض عن المضاف إليه المحذوف الذى ينصرف إلى هذه الأشياء السابقة والتى أخبر عنها بسبحها فى أفلاك – إلا أنهم حددوا هذا المضاف المحذوف بما عرف لديهم سبحه فى ذلك الوقت ، وصرفوه عما خفى عنهم سبحه وهو الأرض والذى جاء التعبير عنه بسبح اللازم لحركتها وما هو من نتائجها وهو الليل والنهار ، يقول بعضهم : « ... وكما قرر القرآن ثبات الأرض – هكذا – قرر حركة الشمس والقمر وجريانهما حولها ، يقول الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (الأنبياء ٣٣) ، والتنوين فى « كلّ » تنوين عوض أى كل منهما – الشمس والقمر – ولا ذكر للأرض »[١] .

ويتضح التعسف فى تحديد مضمون المضاف إليه هنا بهذين فحسب إذا وازنا هذا القول بما نقل عن الزمخشرى فى هذا التنوين – وهو من نعلم علو شأنه فى العربية – قال : « التنوين فى (كلّ) عوض عن المضاف إليه ، أى كلهم فى فلك (يسبحون)[٢] لا يحدد شمسا وقمرا ، وإنما كلهم يعنى كل ما ذكر فى الآية من قبل ليدخل فيه أيضا سبح ما ينتج عن سبحه وحركته الليل والنهار وهو الأرض .

ثم تكون مغالطة المفسرين هنا بلقاء وخروجهم عن سنن العربية فى إخراج مدلول اللفظ عن حقيقته دون قرينة معتبرة أو ضرورة تدعو لذلك حين يفاجئون فى هذه الجملة ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ بضمير الجمع فى جملة الخبر ﴿ يَسْبَحُونَ ﴾ ، وجمع الضمير فى الخبر ملزم لغويا بكون المبتدأ جمعا ينتظم ما صرح به لفظا كالشمس والقمر وما عطفا عليه ضمنا كالأرض ،

---

(١) راجع : الأدلة النقلية والحسية على جريان الشمس وسكون الأرض ص ٦٤ .

(٢) راجع : مفاتيح الغيب – الفخر الرازى ١٦٨/٢٢ ، وانظر : الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل – جار الله الزمخشرى ٥٧١/٢ طبع دار الفكر ١٩٧٩م .

وليس مثنى يقتصر فيه على المصرح به وهو الشمس والقمر وحدهما ، ولكن هؤلاء يخرجون من هذا بقولهم : إن جمع الضمير فى الخبر وهما اثنان باعتبار تعددهما بتعدد المطالع ، وحسَّن هذا الجمع مراعاة الفواصل فى الآيات التى قبلها وبعدها ؛ إذ كلهن منهية بواو ونون »[1] .

ويوغل بعضهم فى هذا التخريج بقوله : « وكان ضميرهما جمعا اعتبارا للتكثير بتكاثر المطالع فيكون لهما نظرا إلى مفهومهما الوضعى أفراد خارجية بهذا الاعتبار لا حقيقة ، ولهذا السبب يقال : شموس وأقمار وإن لم يكن فى الخارج إلا شمس واحد وقمر واحد[2] .

ويستشعر بعضهم إلحاح اللغة على رفض هذه التخريجات فيصادق على ضرورة تطابق المبتدأ للخبر فى معنى الجمع هنا ، ولكنه بدل أن يدخل فى المبتدأ ماله إشارة ودلالة فى الكلام يدخل بدلا منه ما لم ترد إليه إشارة مطلقا فى سياق الكلام ليوقفنا على وجه آخر من خروج المفسرين عن ظاهر اللفظ ، وصرفه إلى غير ظاهره دون دليل على ذلك ، يقول الفخر الرازى : لا يجوز أن يقول : ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ إلا ويدخل فى الكلام مع الشمس والقمر النجوم ليثبت معنى الجمع ومعنى الكل ، فصارت النجوم وإن لم تكن مذكورة أولا فإنها مذكورة لعود هذا الضمير إليها »[3] .

أما دليل – أو شبهة – الإجماع فى هذا الأمر الكونى فلا اعتبار له على فرض وجوده[4] ؛ لأن الإجماع المعتبر هو ما كان فى حكم شرعى يتعبد به

---

(١) يعنى بذلك قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ ، ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾ (الأنبياء ٣٢ – ٣٤) راجع : الأدلة ص ٦٤ .

(٢) راجع : روح المعانى – الألوسى ٣٩/١٧ .

(٣) راجع : مفاتيح الغيب ١٦٧/٢٢ ، فتح القدير – الشوكانى ٤٠٦/٣ .

(٤) ورد ذكر دوران الأرض فى بعض الكتب الإسلامية ككتاب « المواقف » لعضد الدين عبدالرحمن بن أحمد (ت ٧٥٦ هـ) ، وتابعه شارح كتابه على بن محمد الجرجانى (ت ٨١٦ هـ) .=

العباد ربهم مما يرجع إلى أصل عقدى أو فرع فقهى ، وهو إجماع علماء الإسلام الذين توافرت فيهم أدوات الاجتهاد وعرفوا بالدين والاستقامة[1] .

أما الإجماع المنقول هنا فهو فى وجه منه إجماع أهل الكتاب[2] ، وكثرة أهل الهيئة من هؤلاء فكيف يستشهد أصحابنا بإجماع هؤلاء على سكون الأرض على حين أن إجماع أهل الهيئة على حركة الأرض مرفوض عند أصحابنا لأنهم من أهل الكتاب[3] ؟ أليس هذا خلطا منهجيا وتناقضا فى الاستدلال لا يستقيم معه الفكر ولا تطمئن إليه العقول ؟

ونأتى إلى شبهة أن القول بحركة الأرض ودورانها يؤدى إلى تشكيك العقلاء فى حواسهم والإفادة منها وإنكار الضروريات – لنقرر هنا أنّا لا نعلم – كما لا يعلم غيرنا – أية ضروريات أو مدركات حسية يمكن أن يبطلها أو يشكك فيها القول بحركة الأرض ودورانها ، كما لم يعلمنا إياها كذلك هؤلاء المعارضون لدوران الأرض وحركتها ، وإذا قيل : إن حركة الأرض ودورانها مستلزم لسكون الشمس وثباتها ، وفى ذلك تكذيب صريح لقوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ... ﴾ (يس ٣٨) فلا وجه لهذا التلازم ولا قائل بذلك من أهل العلم والاختصاص ، فكما تدور الشمس وتجرى نحو مستقرها المعلوم تجرى معها الأرض حول نفسها وحول الشمس ، وتجرى معهما سائر الكواكب فى المجرة القريبة ، الكل يجرى والكل يدور ،

= كما ذكرها بهاء الدين العاملى فى رسالة تشريح الأفلاك . راجع : الأدلة النقلية والحسية على جريان الشمس وسكون الأرض ص ٥٧ ، وانظر ص ١٤٠ من هذا الكتاب .

(١) راجع : الأدلة النقلية والحسية على جريان الشمس وسكون الأرض ص ٧٤ .

(٢) ينقل صاحب الأدلة النقلية ... ص ٥٤ عن القرطبى قوله : « الذى عليه المسلمون وأهل الكتاب القول بوقوف الأرض وسكونها ومدها وأن حركتها إنما تكون فى العادة لزلزلة تصيبها ، وراجع : الجامع لأحكام القرآن ٩/٢٨٠ .

(٣) راجع : الأدلة النقلية والحسية على جريان الشمس وسكون الأرض ص ٥٢ ، ٥٤ .

ولا يلزم عن دوران أيها ثبات غيره ؛ إذ الكون كله – مجراته وذراته – طائف دوار[1] .

ثم نأتى أخيرا إلى القول بأن حركة الأرض ودورانها يفضى إلى تكذيب الرسل وعدم الثقة بهم ، وليت هؤلاء وضعوا أيدينا على حديث للرسول ﷺ قطعى الدلالة على ثبات الأرض ، وما قد يظنه هؤلاء من دلالة حديث أنس بن مالك عند الترمذى وأحمد بن حنبل[2] على ثبات الأرض وعدم دورانها فإن هذه الدلالة مفهوم لبعض الشراح لا يمنع من أفهام أخرى تقابل مفهوم الثبات للأرض ، ويؤكد هذا أن مفهوم الحركة للأرض الذى حاول ابن القيم أن ينفيه إنما هو الحركة المضطربة التى لا يقر معها للإنسان قرار على الأرض ولا يمكن معها الحياة على نحو ما يحدث لها أثناء الزلازل والبراكين وليست الحركة الدائرية الخفية التى لا يحسها الإنسان ولا الحيوان ويمكن معها قرار الأحياء واستمرار حياتهم عليها دون خوف من اضطراب أو تقلب فى الأحوال يهدد هذه الحياة .

يقول ابن القيم فى مفتاح دار السعادة : « ثم تأمل خلق الأرض على ما هى عليه حين خلقها واقفة ساكنة لتكون مهدا ومستقرا للحيوان والنبات والأمتعة ، ويتمكن الحيوان والناس من السعى عليها فى مآربهم والجلوس

---

(١) راجع ص ١٥٥ من هذا الكتاب .

(٢) روى عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « لما خلق الله عز وجل الأرض جعلت تميد فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرت ، فتعجبت الملائكة من شدة الجبال فقالت : يارب هل من خلقك شىء أشد من الجبال ؟ قال : نعم ، الحديد ، قالت : يارب هل من خلقك شىء أشد من الحديد ؟ قال : نعم ، النار ، قالت : يارب هل من خلقك شىء أشد من النار ؟ قال : نعم ، الماء ، قالت : يارب هل من خلقك شىء أشد من الماء ؟ قال : نعم ، الريح ، قالت : يارب هل من خلقك شىء أشد من الريح ؟ قال : نعم ، ابن آدم يتصدق بيمينه يخفيها من شماله » راجع : الفتح الربانى ١٠/٢٠ ، وأخرجه الترمذى فى آخر كتاب التفسير وقال عنه : حديث غريب ، سنن الترمذى ١٢٤/٥ ، وانظر : التبيان – ابن القيم ص ١٧٦ .

لراحاتهم والنوم لهدوئهم والتمكن من أعمالهم ، ولو كان رجراجة منكفئة لم يستطيعوا على ظهرها قرارا ولا هدوءا ، ولا ثبت لهم عليها بناء ولا أمكنهم عليها صناعة ولا تجارة ولا حراثة ولا مصلحة ، وكيف كانوا يتهنون بالعيش والأرض ترتج من تحتهم ؟ واعتبر ذلك بما يصيبهم من الزلازل على قلة مكثها كيف تصيرهم إلى ترك منازلهم والهرب عنها ؟[1] .

والله أعلم وله الحمد أولا وآخرا .

(١) راجع : الأدلة النقلية والحسية على جريان الشمس وسكون الأرض ص ٢٩ .

مراجــع الكتـــاب ومصـــادره[1]

– الله أو الدمار – سعد جمعة طبع المختار الإسلامى ١٩٧٦ م .

– الله والكون – محمد جمال الدين الفندى طبع الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٦ م .

– آفاق قرآنية – عماد الدين خليل – دار العلم ببيروت ١٩٧٩ م .

– اتجاهات التجديد فى تفسير القرآن الكريم – محمد شريف طبع دار التراث ١٩٨٢ م .

– الإتقان فى علوم القرآن – السيوطى طبع الحلبى بمصر دون تاريخ .

– الأدلة النقلية والحسية على جريان الشمس ... – عبد العزيز بن باز طبع الرياض دون تاريخ .

– الإسلام أهدافه وحقائقه – سيد حسين نصر طبع بيروت ١٩٧٤ م .

– الإسلام فى عصر العلم – محمد الغمراوى طبع السعادة ١٩٧٣ م .

– إعجاز القرآن والبلاغة النبوية – مصطفى صادق الرافعى طبع لبنان ١٩٧٣ م .

– إعلام الموقعين – ابن قيم الجوزية طبع دار الكتب الحديثة دون تاريخ تحقيق الوكيل .

---

(١) لم نلتفت فى ترتيب مراجع الكتاب ومصادره إلى أداة التعريف (ال) ، كما لم نسجل الألقاب العلمية لبعض السادة المؤلفين قرين أسمائهم مع الاحتفاظ بألقابهم العلمية .

– الإنسان فى القرآن الكريم – عباس العقاد طبع دار الهلال دون تاريخ .

– البرهان فى علوم القرآن – الزركشى طبع لبنان ١٩٧٢ م . تحقيق محمد أبى الفضل .

– التبيان فى أقسام القرآن – ابن قيم الجوزية طبع لبنان دون تاريخ تصحيح طه شاهين .

– تفسير القرآن الحكيم (المنار) – محمد رشيد رضا طبع المنار ١٣٤٦ هـ .

– تفسير القرآن العظيم – ابن كثير طبع الحلبى بمصر دون تاريخ .

– التفسير ورجاله – ابن عاشور طبع مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة ١٩٧٠ م .

– التفكير فريضة إسلامية – عباس العقاد طبع دار الهلال دون تاريخ .

– تنبيه الغافلين – ابن النحاس طبع الرياض دون تاريخ تحقيق عبد الله ابن حميد .

– التوفيق العملى بين الحضارة والإسلام – رضوان شافعى طبع المنار ١٩٢٥ م .

– ثقافتنا فى مواجهة العصر – زكى نجيب محمود طبع دار الشروق بالقاهرة ١٩٧٦ م .

– جامع البيان عن تأويل آى القرآن – ابن جرير الطبرى تحقيق أحمد شاكر .

– الجامع لأحكام القرآن – القرطبى طبع لبنان ١٩٦٧ م عن طبعة دار الكتب المصرية .

– الجواهر فى تفسير القرآن الكريم – طنطاوى جوهرى طبع الحلبى ١٣٥٠ هـ .

– درء تعارض العقل والنقل – ابن تيمية طبع الرياض ١٩٧٩ م – تحقيق محمد رشاد سالم .

– الدين – محمد عبد الله دراز طبع العالمية ١٩٥٢ م .

– رسالة عرش الرحمن – ابن تيمية طبع فيصل آباد باكستان ١٤٠٣ هـ تحقيق محمد رشيد رضا .

– روح المعانى – شهاب الدين محمود الألوسى طبع دار إحياء التراث بلبنان دون تاريخ .

– سنن الترمذى (الجامع الصحيح) – طبع بيروت ١٩٨٠ م – تحقيق عبد الرحمن عثمان .

– شرح السنة – البغوى الفراء طبع المكتب الإسلامى بيروت ١٤٠٠ هـ ، تحقيق الأرناؤوط ، الشاويش .

– صحيح البخارى – طبع المكتبة الإسلامية بأستانبول دون تاريخ .

– صحيح مسلم – طبع الرياض ١٩٨٠ م – تصحيح محمد فؤاد عبد الباق .

– ظواهر جغرافية – إبراهيم النصيرات طبع الأردن ١٩٨١ م .

– الفتح الربانى فى ترتيب مسند ابن حنبل – أحمد عبد الرحمن البنا – طبع دار الشهاب بالقاهرة دون تاريخ .

– فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير – الشوكانى طبع الحلبى بمصر دون تاريخ .

– الفصل فى الملل والأهواء والنحل – ابن حزم الظاهرى طبع الخانجى بالقاهرة دون تاريخ .

– الفضاء الكونى – محمد جمال الدين الفندى طبع الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٦ م .

– الفكر الدينى فى مواجهة العصر – عفت محمد الشرقاوى طبع الشباب بالقاهرة ١٩٧٦ م .

– الفلسفة القرآنية – عباس العقاد طبع دار الإسلام بالقاهرة ١٩٧٣ م .

– فى ظلال القرآن – سيد قطب طبع دار الشروق بالقاهرة ١٩٨٢ م .

– فى مناهج البحث الاجتماعى فى القرآن الكريم – لبيب السعيد طبع دار عكاظ بجدة ١٩٨٠ م .

– الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل – جار الله الزمخشرى طبع دار الفكر ١٩٧٩ م .

– القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم – « موريس بوكاى » طبع دار المعارف ١٩٧٩ م .

– القرآن والعلم – أحمد محمود سليمان طبع القاهرة دون تاريخ .

– قصة السماوات والأرض – محمد جمال الدين الفندى طبع الشعب بالقاهرة دون تاريخ .

– القضاء والقدر – محمد متولى الشعراوى طبع دار الشروق ١٩٧٥ م إعداد أحمد فراج .

– القواعد والفوائد – على بن عباس البعلى الحنبلى طبع أنصار السنة بمصر دون تاريخ – تحقيق محمد حامد الفقى .

– لله العلم – بشير التركى طبع تونس ١٩٧٩ م .

– مجموع فتاوى ابن تيمية ، طبع مؤسسة الرسالة بيروت ونشر دار الإفتاء بالرياض ١٣٩٨ هـ .

– مدخل إلى القرآن الكريم – محمد عبد الله دراز طبع دار القرآن

بالكويت ١٩٧١ م .

– معجزة القرآن فى وصف الكائنات – حنفى أحمد طبع القاهرة ١٩٥٤ م .

– مع القرآن فى عالمه الرحيب – عماد الدين خليل طبع دار العلم للملايين بيروت دون تاريخ .

– مفاتيح الغيب – الفخر الرازى ، طبع طهران دار الكتب العلمية دون تاريخ .

– مقال فى الإنسان – عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) طبع دار المعارف ١٩٦٩ م .

– مقدمة ابن خلدون طبع الكتاب اللبنانى ١٩٦٧ م .

– من إشارات العلوم فى القرآن – عبد العزيز سيد الأهل طبع دار النهضة بلبنان ١٩٧٢ م .

– نحن والقرآن – محمد عبد الله السمان طبع القاهرة ١٩٦٤ م .

– نحو منهج لتفسير القرآن الكريم – محمد الصادق عرجون منشورات العصر الحديث ١٩٧٢ م .

– نظرات فى القرآن الكريم – محمد الغزالى طبع الخانجى دون تاريخ .

– الوحى المحمدى – محمد رشيد رضا طبع المنار ١٣٥٢ هـ .

دوريـــات :

– الأمة (رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية بدولة قطر) العدد السبعون – يونيو ١٩٨٦ م .

– هذه سبيلى (كلية الدعوة والإعلام – جامعة الإمام ابن سعود بالرياض) – ضوابط المعرفة فى القرآن – أحمد عبد الرحمن ١٤٠٢ هـ .

صدر للمؤلف

١ – اتجاهات التجديد فى تفسير القرآن الكريم فى مصر – دار التراث بالقاهرة ١٩٨٢ م – ١٤٠٢ هـ .

٢ – من هدى القرآن الكريم فى نظام الاجتماع وآداب السلوك – مطبعة المدينة – دار السلام بالقاهرة ١٩٨٥ م – ١٤٠٥ هـ .

٣ – بحوث فى تفسير القرآن الكريم (تاريخه – اتجاهاته – مناهجه) – مطبعة المدينة – دار السلام بالقاهرة ١٩٨٦ م – ١٤٠٦ هـ .

٤ – هداية القرآن الكريم فى الآفاق والأنفس وإعجازه العلمى – مطبعة المدينة – دار السلام بالقاهرة ١٩٨٦ م – ١٤٠٦ هـ .

٥ – البغوى الفراء وتفسيره للقرآن الكريم – مطبعة المدينة – دار السلام بالقاهرة ١٩٨٦ م – ١٤٠٦ هـ .

تحت الطبع

٦ – فى أحكام التركات (الميراث – الوصية – الوقف) دراسة مقارنة .

٧ – النكات القرآنية – الراغب الأصفهانى (٥٠٢ هـ) – تحقيق ودراسة .

٨ – غرر البيان لمبهمات القرآن – بدر الدين بن جماعة (٧٣٣ هـ) – تحقيق ودراسة .

٩ – من هدى القرآن الكريم فى نظام الاجتماع وآداب السلوك (الكتاب الثانى) .

١٠ – هداية القرآن الكريم فى الآفاق والأنفس وإعجازه العلمى (الكتاب الثانى) .

محتوى الكتاب وموضوعاته

الفصل الثالث – الدراسة التطبيقية
(الإعجاز فى آفاق الكون) ٨٣ – ١٧٦

رقم الايداع ٨٦/٤٤٩٣

الطبعة الأولى